مؤسسة
بناء
للتنمية الإنسانية
ضوء القمر
على نظم
عقد الدرر
في النصائح الغرر
نظمها وقدم لها فضيلة الشيخ
صالح بن محمد باكرمان
شرحها واعتنى بها تلميذه
عصام بن محمد باسنبل
١٤٤٨هـ - ٢٠٢٦م

ضوء القمر

على نظم

عقد الدرر في النصائح الغرر

اسم الكتاب: ضوءُ القمرِ على نظمِ عِقْدِ الدُّرَرِ فِي النَّصَائِحِ الْغُرَرِ

اسم المؤلف: عصام بن محمد بن سالم باسنبل

عدد الصفحات: ١٩٢ ص

مقاس الكتاب: ١٧*٢٤ سم

رقم الإيداع:

محفوظة جميع الحقوق

يمنع طباعة أو تصوير هذا الكتاب أو إعادة نشره بكافة النشر العادي أو الإلكتروني
إلا بإذن خطي من المؤلف ، وكل من يخالف ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

الطبعة الأولى

١٤٤٨هـ - ٢٠٢٦م

ضوء القمر

على نظم

عقد الدرر في النصائح الغرر

نظمها وقدّم لها الشيخ

صالح بن محمد باكرمان

شرحها واعتنى بها تلميذه

عصام بن محمد باسنبل

١٤٤٨هـ - ٢٠٢٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم النَّاظم

الشَّيخ صالح بن محمَّد باكرمان

الحمدُ لله ذي الفضل والمِنَّة، الذي جعل سلوك الأخلاق والآداب طريقًا إلى الجنَّة، والصَّلاة والسَّلام على مَن أكرمه ربّه فأحسنَ تأديبه، ذي الخُلُقِ العظيم، والأدب الكريم، سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين. أمَّا بعد:

فقد طالعتُ الشَّرح اللَّطيف البديع الذي كتبه أخونا وطالبنا الهمام الدكتور عصام باسنبل – حفظه الله – الموسوم بـ (**ضوءالقمر**) الذي وضعه على نظمنا (عِقد الدُّرر في النَّصائح الغرر)، فوجدته شرحًا ممتعًا على عادة الدكتور عصام – حفظه الله تعالى – في جودة الشَّرح بتوضيح الأبيات، وإجمال المعنى، وحُسن الاستدلال، وتكميل المسائل، وتزيين الشَّرح بالنقول، مع توسُّط في الشَّرح وعدم الإسهاب، فجزاه الله خير الجزاء ونفع به وبمؤلفاته، وفتح عليه وزاده مِن فضله.

وأوصي إخواني في المراكز الدَّعوية، والمعاهد العلميَّة، والمحاضن التَّربويَّة أن يعتمدوا هذا الشَّرح منهجًا لمادة النَّصائح، والله الموفق لكل خير.

أبو مجاهد صالح بن محمد باكرمان

حضرموت – المكلا (الديس)

٥ ربيع الأول ١٤٤٨هـ

مقدِّمة

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على أشرفِ الأنبياء والمرسلين، نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أمَّا بعد:

فإنَّ مِن أجلِّ مَا تُصرفُ فيه الأعمار، وتُبذلُ الجهود، ويُتقرَّبُ به إلى الله تعالى: العلمُ النَّافع المقرون بالعمل الصَّالح، ولا سيما مَا كان باعثًا على تزكية النُّفوس، وتقويم الأخلاق، وتهذيب السُّلوك، وربط طالب العلم بربِّه، حتى يكون عمله نورًا يهدي، لا حُجَّةً عليه تُرديه.

وقد وقفتُ على هذه المنظومة المباركة: "عِقدُ الدُّرر في النَّصائح الغرر" لشيخنا الفاضل أبي مجاهد صالح بن محمَّد باكرمان – حفظه الله – فوجدتُّها دُررًا منظومة، ووصايا جامعة، وكلمات يسيرة المبنى عظيمة المعنى، تجمعُ لطالب العلم أبوابًا مِنَ الآداب، ومفاتيح مِنَ الأخلاق، وأصولاً مِنَ التَّزكية والإصلاح.

وقد اشتملت هذه المنظومة على عددٍ كبير مِنَ الوصايا والآداب، وقد اجتهدتُ في استخراجها وجمعتها، فبلغت إحدى وخمسين وصيَّةً جامعة، وضبطتُها بالشَّكل ضبطًا يُعينُ على سلامة القراءة، وصحَّة الأداء، ويُسهِّل على فهمها وحفظها، ثمَّ عنْونتُ لكلِّ وصيَّةٍ بعنوانٍ يناسب مضمونها؛ تيسيرًا على طالب العلم في المراجعة، وتقريبًا لمعانيها.

ثمَّ رأيتُ أن أخدمها بهذا الشَّرح الميسَّر، المسمَّى بـ "**ضوء القمر على نظمِ عِقد الدُّرر**"؛ تقريبًا لمعانيها، وبيانًا لمقاصدها، وإيضاحًا لِمَا تضمَّنته مِنَ الفوائد واللَّطائف، بأسلوبٍ سهلٍ قريبٍ، ينتفعُ به طالب العلم، والدَّاعية، والمُربِّي، وكل راغبٍ في سلوك طريق العلم والعمل.

ولم أقصد بذلك استقصاء المسائل، ولا التَّطويل المُمِل، وإنَّما أردتُ شرحًا متوسِّطًا، يجمع بين وضوح العبارة، وصحَّة التَّأصيل، وحُسن التَّوجيه، مع العناية بالنُّقول الموثَّقة، وربط النُّصوص الشَّرعيَّة بواقع طالب العلم وحاجته.

وقد كان أصل هذا الشَّرح دروسًا أَلقيتُها ضمن سلسلة دروسي العلميَّة بمسجد علي بن أبي طالب – بالمكلا - بويش، حيثُ جرت المذاكرة حول هذه المنظومة المباركة شرحًا وتعليقًا وبيانًا، ثمَّ رأيتُ بعد ذلك جمعها وتهذيبها وتحريرها؛ لتكون أقرب تناولاً، وأعمُّ نفعًا لطلَّاب العلم.

ومِنَ الوفاء لأهل الفضل أن أذكر بالشُّكر الأخ الفاضل: عبدالرَّحيم بن رجب باحارثة، إذ فتح مسجده، ويسَّر إقامة هذه المجالس العلميَّة المباركة، وكان لذلك أثرٌ في نشر العلم وتعليم طُلَّابه، فأسأل الله تعالى أن يجزيه خير الجزاء، وأن يبارك في سعيه، ويجعل ذلك مِنَ الصَّدقة الجارية له، ولمن بنى هذا المسجد.

كما أسأله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه، مباركًا نفعه، وأن ينفع به كاتبه وقارئه وناشره ووالديه، وأن يجعله مِنَ العلم الذي يبقى أثره، ويمتد نفعه بعد الرَّحيل.

وصلى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين

كتبه راجي عفوَ ربِّه ذي الفضل

عصام بن محمَّد باسنبل

ثالث أيام التَّشريق ١٤٤٧هـ

عقد الدُّرر في النَّصائح الغرر

سَـــأَبْدَأُ بِاسْـــمِ الإِلَهِ الـــرَّحِيمْ ... لِأَنْظِـــمَ دُرًّا لِعِقْـــدٍ كَـــرِيمْ
وَأَحْمَـــدُ رَبِّي فَلِـــلَّهِ حَمْـــدِي ... عَـلَى كُـلِّ فَضْـلٍ وَخَـيْرٍ عَمِـيمْ
وَأُهْـدِي صَـــلَاتِي لِخَيْرِ رَسُـــولٍ ... وَأُهْـدِي سَـلَامِي بِحُـبٍّ عَظِـيمْ
وَبَعْـدُ فَهَـذِي وَصَـــايَا غَوَالٍ ... سَأُرْسِـــلُهَا فِي الدُّنَـــا كَالنَّسِـــيمْ
أَيَا طَالِبَ الْعِلْمِ هَاكَ الْوَصَـــايَا ... فَـخُـذْهَـا بِجِـدٍّ وَعَـقْـلٍ فَـهِيمْ
وَأُوْلَى الْوَصَـــايَا سَـــأُوصِـــيكَ فِيهَا ... بِتَقْـــوَى الْإِلَهِ وَقَصْـــدٍ سَـــلِيمْ
فَكُنْ مُخْلِصًـــا لَا تُرَاءِ بِفِعْـلٍ ... وَرَاقِـــبْ لِـــرَبِّ الْعِبَـــادِ الْعَلِـــيمْ
وَلَا تَعْجَـــبَنَّ بِنَفْسِـــكَ يَوْمًـــا ... فَـــإِنَّ الْغُـــرُورَ هَـــلَاكُ الْحَلِـــيمْ
وَبَعْـدُ تَعَلَّمْ فَلِلْعِلْمِ فَضْـــلٌ ... وَشَـــأْنٌ رَفِيعٌ عَلَا كَالنُّجُومْ
فَبِـالْعِلْمِ تَنْجُوْ وَبِـالْعِلْمِ تَسْمُوْ ... وَبِالْعِلْمِ تَحْشَـــى فَجِدْ فِي الْعُلُومْ
وَبَـادِرْ بُـنَيَّ بِحِـفْـظِ الْـقُـرَانِ ... وَحِفْظِ حَدِيثِ الرَّسُـــولِ الْكَرِيمْ
وَأُوصِـــيكَ أَيْضًـــا بِحِفْظِ الْمُتُونِ ... وَأَخْـــذِ الْفُنُـــونِ بِجِـــدٍّ لَـــزِيمْ
وَأُوصِـيكَ بِـالْفَهْمِ فَـالْفَهْمُ أَصْـلٌ ... وَسَـــلْ إِنْ جَهِلْتَ بِعَقْـلٍ حَلِيمْ
تَـدَرَّجْ عَلَى سُـــلَّمِ الْعِلْمِ وَاصْـبِرْ ... إِذَا كُنْـتَ تَرْنُـو لِقَصْـدٍ عَظِـيمْ
وَكُـــنْ لِلشُّيُـــوخِ مُجِـــلًّا مُعِـــزًّا ... بِفِعْـــلٍ حَمِيـــدٍ وَقَـــوْلٍ سَـــلِيمْ
وَلَا بُـدَّ مِنْ عَمَـلِ الصَّـــالِحَاتِ ... فَعِلْـــمٌ بِـــلَا عَمَـــلٍ كَـــالْعَقِيمْ

وَكُنْ ذَا سُلُوكٍ جَمِيلٍ وَسَمْتٍ ... وَقَوْلٍ رَقِيقٍ وَخُلُقٍ كَرِيمْ
تَأَدَّبْ مَعَ النَّاسِ فِي كُلِّ حَالٍ ... وَرِقَّ بِطَبْعِكَ كُنْ كَالنَّسِيمْ
وَكُنْ ذَا وَقَارٍ خَفِيفَ المِزَاحِ ... عَفِيفَ اللِّسَانِ بِوَجْهٍ بَسِيمْ
وَكُنْ سَلَفِيًّا بِعَقْدٍ صَحِيحٍ ... عَلَى مَسْلَكِ السَّالِفِينَ السَّلِيمْ
وَكُنْ وَسَطِيًّا وَلَا تَغْلُ يَوْمًا ... وَلَا تَجْفُ حَقًّا تُصِبْ فِي الصَّمِيمْ
وَجَانِبْ بُنَيَّ مُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ ... وَسُبُلَ الغُوَاةِ وَخَطْوَ الرَّجِيمْ
وَفِرَّ مِنَ الشُّبُهَاتِ بَعِيدًا ... فَآثَارُهَا حَيَّرَتْ بِالْحَلِيمْ
وَلَا تَقْتَرِبْ مِنْ حِمَى الشَّهَوَاتِ ... فَتُرْمَى بِهَا فِي أُتُونِ الْجَحِيمْ
تَوَاضَعْ تَكُنْ كَالنُّجُومِ رَفِيعًا ... فَإِنَّ التَّكَبُّرَ شَأْنُ الْعَظِيمْ
وَكُنْ حَسَنَ الْبِرِّ بِالْوَالِدَيْنِ ... وَصُولًا لِرَحِمٍ وَخِلٍّ حَمِيمْ
وَعَلِّمْ وَبَلِّغْ لِعِلْمِكَ وَادْعُ ... بِرِفْقٍ وَصَبْرٍ وَعَزْمٍ صَمِيمْ
وَكُنْ مُسْتَقِيمًا وَقُدْوَةَ خَيْرٍ ... تَفُزْ بَعْدَ ذَا بِالرِّضَا وَالنَّعِيمْ
وَلَا تَتَعَصَّبْ لِشَيْخٍ وَجَمْعٍ ... وَحِزْبٍ وَقَوْمٍ وَرَأْيٍ سَقِيمْ
وَعَاوِنْ عَلَى الْبِرِّ كُلَّ الدُّعَاةِ ... وَقُلْ خَيْرَ قَوْلٍ بِنُصْحِ الْحَمِيمْ
وَلَا لَا تُمَارِ مِرَاءً مُزِلًّا ... وَجَادِلْ بِحُسْنٍ لِقَصْدٍ سَلِيمْ
وَمِنْ رِفْقَةِ السُّوءِ فَاحْذَرْ بُنَيَّ ... وَصَاحِبْ تَقِيًّا يَقِيكَ الْجَحِيمْ
وَطَهِّرْ فُؤَادَكَ مِنْ كُلِّ سُوءٍ ... وَحِقْدٍ دَفِينٍ وَغِلٍّ كَظِيمْ
وَبِتْ سَالِمَ الصَّدْرِ تُمْسِ بَهِيجًا ... وَتُصْبِحُ فِينَا بِقَلْبٍ سَلِيمْ

وَلَا تَحْسَـــدَنَّ فَـإِنَّ الْحَسُـــودَ ... مَـرِيـضُ الْـفُـؤَادِ بَـغِـيـضٌ أَثِـيمْ
وَطَرْفَكَ فَاغْضُـضْ عَنِ الْحُرُمَاتِ ... فَـرُؤْيَتُـهـا مُـهْـلِكٌ وَمُـلِـيمْ
وَحَافِظْ عَلَى الْوَقْتِ فَهُوَ الْحَيَاةُ ... وَخَـطِّـطْ وَنَـظِّـمْ وَنَـفِّـذْ وَقِـيمْ
وَلَا تُشْغِـلِ النَّفْسَ بِـالْمُلْهِيَـاتِ ... وَمَـا لَـيْسَ يَعْـنِي فَـأَنْتَ حَكِـيمْ
وَأَكْثِرْ مِنَ الذِّكْرِ فَالذِّكْرُ حِصْـــنٌ ... وَرَتِّلْ - هُدِيتَ - الْقُرَانَ الْكَرِيمْ
وَكُنْ عَـابِـدًا زَاهِـدًا فِي الْحُطَـامِ ... عَـزِيـزًا شَرِيـفًـا تُـغِـيـظُ الْـلَّـئِـيمْ
وَحَاسِـــبْ لِنَفْسِـــكَ لَا لَا تَدَعْهَا ... تُطِيعُ هَوَاهَـا فَتَصْـــلَى الْجَحِيمْ
وَدَاوِمْ عَلَى مَجْلِسِ الذِّكْرِ دَوْمًـا ... تُجَـلِّيْ فُـؤَادَكَ مِـنْ كُـلِّ غَـيمْ
وَتُبْ دَائِمًـا مِنْ جَمِيعِ الذُّنُوبِ ... مُقِرًّا بِتَقْصِـــيرِكَ الْمُسْـــتَـدِيمْ
وَصَـــلِّ عَلَى الْمُصْـــطَفَى يَا إِلَهِي ... وَسَـــلِّم وَلِيْ فَـاغْفِرَنْ يَـا رَحِيمْ

شرح المقدِّمة

سَـــأَبْدَأُ بِاسْـــمِ الإِلَهِ الـــرَّحِيمْ ... لِأَنْـظِـمَ دُرًّا لِـعِـقْـدٍ كَـرِيمْ
وَأَحْـمَـدُ رَبِّي فَـلِـلَّهِ حَـمْـدِي ... عَلَى كُـلِّ فَضْـــلٍ وَخَيْرٍ عَمِيمْ
وَأُهْـدِي صَـــلَاتِي لِخَيْرِ رَسُـــولٍ ... وَأُهْـدِي سَـلَامِي بِحُـبٍّ عَظِـيمْ

ابتدأ شيخنا – حفظه الله – نظمه بالبسملة؛ لِمَا عُلِمَ مِن فضلها، ولابتداء كتاب الله تعالى بها، ولفعل النَّبي ﷺ لها، وهذا ممَّا جرى عمل أهل العلم على افتتاح الكُتب والنَّظم بها، ثمَّ ثنَّى أدبًا مع الله تعالى بحمده والثَّناء عليه بما هو أهله، على أشياء كثيرة، وعلى كلِّ نِعَمِ الله تعالى التي لا تُعدُّ ولا تُحصى، ثمَّ ثلَّث بالصَّلاة والسَّلام على النَّبيِّ ﷺ اتباعًا لطريقة أهل العلم في أوائل مصنفاتهم، كما قال العيني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ذكروا – أهل العلم - أنَّه مِمَّا لابدَّ منه في أوائل المصنَّفات: الابتداء بالبسملة، ثمَّ بالحمدلة، ثمَّ بالصَّلاة على النَّبيِّ ﷺ بصريح اسمه"(١).

(١) البناية شرح الهداية، للعيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ، (١/ ١١٧).

(الإِلَهِ): يعني المألوهُ المعبود، المستحقُّ للألوهيَّة والعبادة وحده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى،

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأمَّا الإله: فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال، فيدخل في هذا الاسم جميع الأسماء الحسنى؛ ولهذا كان القول الصَّحيح أنَّ "الله" أصله "الإله" كما هو قول سيبويه وجمهور أصحابه إلَّا مَن شَذَّ منهم، وأنَّ اسم الله تعالى هو الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى والصِّفات العُلى"[(١)].

(الرَّحِيمْ): ذو الرَّحمة لعباده المؤمنين يوم القيامة، كما في قوله تعالى:

﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾[(٢)]، فخصَّ برحمته عباده المؤمنين.

(لِأَنْظِمَ): النَّظم: التَّأليف، وضمُّ شيءٍ إلى شيءٍ آخر، والمنظوم ... وَنَظَمَ اللُّؤلؤ يَنْظِمُهُ نَظْمًا ونِظَامًا، وَنَظَّمَهُ: أَلَّفه، وجمعه في سِلكٍ، فانتظم وتنظَّم ... والنِّظام: كلُّ خيط يُنظَمُ به لؤلؤ ونحوه[(٣)].

---

(١) بدائع الفوائد، لابن القيِّم، تحقيق: علي بن محمّد العمران، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٥هـ، (٢/ ٧٨٢).

(٢) سورة الأحزاب: ٤٣.

(٣) القاموس المحيط، للفيروز آبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط٨، ١٤٢٦هـ، ص١١٦٢.

(دُرًّا): الدُّرر: جمع دُرَّة، وهي كبار اللُّؤلؤ، ويسمى دُرَّة لنقائه، وصفائه، وشدَّة إضاءته وبريقه. وقد قصد النَّاظم به: ذلك اللَّفظ الذي يُطلق على كلِّ حكمةٍ أو قولٍ ذو فائدة في نظمه هذا.

(لِعِقْدٍ كَرِيمْ): العِقْد: جمعه عُقود، القلادة، أو خيط يُنظَم فيه الخرزُ ونحوُه يُحيطُ بالعُنق. ووصفه بأنَّه كريم، أي: ثمين أو نَفِيس؛ لأنَّه مُكرَّم لدى النُّفوس لجماله ونُدرة وجوده.

(وَأَحْمَدُ رَبِّي فَلِلَّهِ حَمْدِي): الحمد: وهو الثَّناء على الله بصفات الكمال، وبأفعاله الدَّائرة بين الفضل والعدل، فله الحمد الكامل، بجميع الوجوه[1]. فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المستحقُّ لكلِّ حَمدٍ ومحبَّةٍ وثناءٍ، وهو المحمود على الدَّوام في جميع الأحوال بصفات الكمال مع المحبَّة والتَّعظيم.

(عَلَى كُلِّ فَضْلٍ وَخَيْرٍ عَمِيمْ): أي الحمدُ لله على مَا لهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنَ الإفضال والإنعام الكثير، فهو المُنعِم على عباده بأنواع النِّعم في دينهم ودنياهم، ولا أَحَدَ يستطيع أن يُحصيها؛ لذلك لابدَّ أن يَحمِدَ الإنسانُ ربَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عند تجدُّدِ

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ، ص٣٩.

النِّعم، وحصول مَا كان يتوقَّع حصوله، واندفاع مَا كان يخاف وقوعه. فله الحمدُ أوَّلًا وآخرًا حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه.

وَأُهْـدِي صَــلَاتِي لِخَيْرِ رَسُــولٍ وَأُهْـدِي سَــلَامِي بِحُـبٍّ عَظِيمْ

(صَلَاتِي): قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبيِّنًا الصَّلاةُ على النَّبيِّ ﷺ "هي الطَّلبُ مِنَ الله مَا أخبر به عن صلاته وصلاة ملائكته، وهي ثناءٌ عليه، وإظهارٌ لفضله وشرفه، وإرادةُ تكريمه وتقريبه، فهي تتضمَّن الخبر والطَّلبَ، وسُمِّي هذا السُّؤال والدُّعاء مِنَّا نحن: صلاةً عليه؛ لوجهين:

أحدهما: أنَّه يتضمَّن ثناء المصلِّي عليه، والإشادة بذكر شرفه وفضله، والإرادة والمحبَّة لذلك مِنَ الله تعالى، فقد تضمَّنت الخبرَ والطَّلبَ.

والوجه الثَّاني: أنَّ ذلك سُمِّي مِنَّا صلاةً؛ لسؤالنا مِنَ الله أن يُصلِّيَ عليه، فصلاةُ الله عليه: ثناؤُه وإرادته لرفع ذكره وتقريبه، وصلاتنا نحن عليه: سؤالنا اللهَ تعالى أن يفعل ذلك به"[1].

(١) جلاء الأفهام في فضل الصلاة علىٰ محمد خير الأنام، لابن القيم، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، دار العروبة، الكويت، ط٢، ١٤٠٧هـ، ص١٦٢.

(سَلَامِي): ومعنى السَّلام على النَّبي ﷺ فهو الدُّعاء بسلامة بدنه في حال حياته، وسلامة دينه، وسلامة بدنه في قبره، وسلامته يوم القيامة.

(بِحُبٍّ عَظِيمْ): والصَّلاة والسَّلام على النَّبيِّ ﷺ مِن أفضل القربات، ومِن أهمِّ الطَّاعات، كما أنَّها علامة مِن علامات محبَّة النَّبيِّ ﷺ، فالواجب الإكثار مِنَ الصَّلاة والسَّلام عليه، وأن نوقِّره، ونقدِّم قوله وطاعته على كلِّ أحد، وأن نخضع لهديه، ونقتدي به.

وَبَعْـــدُ فَهَـــذِي وَصَـــايَا غَـــوَالٍ ... سَأُرْسِـــلُهَا فِي الدُّنَـــا كَالنَّسِـــيمْ
أَيَا طَالِبَ الْعِلْمِ هَاكَ الْوَصَـــايَا ... فَخُـــذْهَا بِجِـــدٍّ وَعَقْـــلٍ فَهِـــيمْ

(وَبَعْدُ): هي كلمةٌ يُؤتَى بها للانتقال مِن أُسلوبٍ إلى أُسلُوبٍ آخر، أَي وبَعْدَ البسملةِ والحمدلةِ والصَّلاة والسَّلام على رسول الله ﷺ فأَقول وأشرع في المقصود.

(وَصَايَا غَوَالٍ): هذه العبارة تدلُّ على أنَّ هذه الوصايا التي سيذكرها، هي عبارة عن وصايا قيِّمة ونفِيسة وثمينة، تحملُ معاني عظيمة، ذات قيمة كبيرة للمتلقِّي.

(فِي الدُّنَا): أي في الدُّنيا، وهي الحياة التي نعيش فيها، والمقصود بقوله: (سَأُرْسِلُهَا فِي الدُّنَا كَالنَّسِيمْ): أي أنَّ هذه الوصايا والنَّصائح هي بمثابة هديَّة خفيفة ولطيفة، مثل النَّسيم الذي يهبُّ ليُنعِش النُّفوس، والهدف هو أن تكون هذه الوصايا محبِّبة ومقبولة لطلَّاب العلم خاصة وغيرهم، تلامس القلوب وتترك أثرًا إيجابيًّا، دون أن تكون ثقيلة أو مزعجة.

(أَيَا طَالِبَ الْعِلْمِ): نداء للمخاطبة المباشرة لمن يسعى إلى طلب العلم، بأن يأخذ بالوصايا ويلتزم بها، ويتحلَّى بالأخلاق الحسنة في سعيه نحو طلبه للعلم.

(هَاكَ الْوَصَايَا): أي: خذ هذه الوصايا، واقبل تلك النَّصائح النَّافعة التي مَا إنْ تمسَّكتَ بها، وعمِلتَ بمقتضاها كنتَ مِمَّن يصِلُون إلى أعلى المراتب، ويُحقِّقون أهدافهم بفضل الله تعالى.

(فَخُذْهَا بِجِدٍّ وَعَقْلٍ فَهِيمْ): أي: خذ تلك الوصايا والنَّصائح بجدِّيَّة واهتمام، وبعقلٍ مفتوح وفاهم؛ لتستفيد منها وتطبِّقها بشكلٍ صحيح.

(٥١/١) الوصيَّة بتقوى الله تعالى

وَأَوْلَى الْوَصَـايَا سَأُوصِـيكَ فِيهَـا ... بِتَقْـــوَى الْإِلَهِ وَقَصْـــدٍ سَـــلِيمْ

وهي وصيَّة الله تعالى للأوَّلين والآخرين كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾[1]، وطالب العلم هو أولى النَّاس بتقوى الله؛ لأنَّ حُجَّة الله عليه قائمة، وهو قدوة لغيره. وهي خيرُ زادٍ له كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[2].

وتقوى الله عَزَّ وَجَلَّ هي المقصود الأعظم مِن طلب العلم؛ لأنَّه يُقرِّب مِنَ الله تعالى، ويزيد الخشية منه، والإنابة إليه، ويزكِّي النُّفوس ويهذِّبها، ويُرقِّق القلوب، ويدفعُ إلى العمل الصَّالح.

وبين تحصيل العلم والانتفاع به وبين تقوى الله تعالى علاقة قويَّة، وممَّا يدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾[3]، قال

---

(١) سورة النساء: ١٣١.

(٢) سورة البقرة: ١٩٧.

(٣) سورة البقرة: ٢٨٢.

القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وَعدٌ مِنَ الله تعالى بأنَّ مَن اتَّقاهُ علَّمه، أي يجعل في قلبه نورًا يَفهم به مَا يُلقى إليه، وقد يجعلُ الله في قلبه ابتداءً فرقانًا، أي فيصلاً يَفصِلُ به بين الحقِّ والباطل، ومنه قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾[1]. والله أعلم"[2].

وإنَّ أعظمَ النَّاس تقوى وخشيةً لله تعالى هم أهل العلم العارفون به كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾[3]؛ ولذلك إذا لم يُصاحِب العلم إخلاصٌ وتقوى وخشية، يُدفع بها الهوى، لم يكُن للعلم فائدة، ويُصبحُ وبالاً على صاحبه، وربما يكون قائدًا له إلى نارِ جهنَّم، والله المستعان.

وقد قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: "لَيْسَ الْعِلْمُ بِكَثْرَةِ الرِّوَايَةِ وَلَكِنَّ الْعِلْمَ الْخَشْيَةُ"[4]؛ لذلك كان السَّلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يوصي إخوانهم وطلابهم بها، ومِن

---

(١) سورة الأنفال: ٢٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصري، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ، (٣/ ٤٠٦).

(٣) سورة فاطر: ٢٨.

(٤) الزهد، للإمام أحمد بن حنبل، وضع حواشيه: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ، ص١٣١.

ذلك مَا جاء عن علي بن المَدِيني قال: وَدَّعت أحمد بن حنبل فقلتُ له: توصيني بشيءٍ؟ قال: نَعم، اجعل التقوى زَادك، وانصُب الآخِرة أمامَك"[1].

(١) مناقب الإمام أحمد، لابن الجوزي، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، ط٢، ١٤٠٩هـ، ص٢٧٣.

(٥١/٢) الوصيَّة بالإخلاص وسلامة القصد

وَأُوْلَى الْوَصَـايَا سَأُوصِـيكَ فِيهَـا ... بِتَقْـــوَى الْإِلَهِ وَقَصْـــدٍ سَـــلِيمْ
فَكُنْ مُخْلِصًـــا لَا تُرَاءِ بِفِعْـلٍ ... وَرَاقِـــبْ لِـــرَبِّ الْعِبَـــادِ الْعَلِـــيمْ

وهذه الوصيَّة الثَّانية: وهي الوصيَّة بالإخلاص وسلامة القصد، كما في قوله: (وَقَصْدٍ سَلِيمْ)، وتقدير الكلام: "وأوصيك بقصدٍ سليم"، وأكَّدها بالإثبات بقوله: (فَكُنْ مُخْلِصًا)، ثمَّ أكَّدها بالنَّهي عن مَا يضادها بقوله: (لَا تُرَاءِ بِفِعْلٍ) كما في الوصيَّة التي ستأتي بعدها.

وقوله: (وَقَصْدٍ سَلِيمْ): يعني بنيَّةٍ خالصةٍ ومقصودٍ صحيح؛ بحيث يكون الهدف مِنَ الوصايا والنَّصائح هو الخير والصَّلاح، وليس لغرضٍ سيِّءٍ أو منحرفٍ.

وقد أَمَرَ الله تعالى بالإخلاص له في العبادات، فقال: ﴿ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾[1]، وفي الحديث عَنْ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

(١) سورة الزمر: ٢.

سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى"[(١)]، والعلم عبادة، والعبادة لا تُقبَل إلَّا بالإخلاص لله تعالى.

والمقصود بإخلاص النِّيَّة لله تعالى في طلب العلم هو: أن يقصد به وجه الله تعالى والعمل به، وإحياء الشَّريعة، وتنوير قلبه، وتحلية باطنه، والقرب مِنَ الله تعالى يوم لقائه، والتَّعرض لِمَا أعدَّ لأهله مِن رضوانه، وعظم فضله.

والإخلاص هو أوَّل أدبٍ ينبغي أن يتحلَّى به طالب العلم؛ لأنَّ الإخلاص أساس لقبول الأعمال، وروح الطَّاعات، ومِن أعظم أسرار التَّوفيق؛ لذلك فإنَّ طالب العلم بحاجةٍ إلى أن يصحِّح نيَّته دائمًا حتَّى يبتعد عن الرِّياء والسُّمعة وحبِّ الظُّهور وحبِّ الشُّهرة، قال مُهَنَّا: "قلتُ لأحمد: حدِّثنا مَا أفضلُ الأعمال؟ قال: طلبُ العلم، قلتُ: لمن؟ قال: لِمَن صَحَّت نيَّتُه. قلتُ: وأيُّ شيءٍ يُصحِّحُ النِّيَّة؟ قال: ينوي؛ يتواضعُ فيه ويَنفي عنه الجهلَ"[(٢)].

وهكذا فإن خَلُصَت النِّيَّة في العلم قُبِلَ وَزَكَا، وَنَمَتْ بركته، وإنْ قَصَدَ به غير وجه الله تعالى حَبِطَ وَضَاعَ، ففي الحديث عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ

(١) رواه البخاري ح١.

(٢) الآداب الشرعية والمنح المرعية، لابن مفلح، الناشر: عالم الكتب، (٢/ ٣٧).

النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيَصْرِفَ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ، فَهُوَ فِي النَّارِ"(١).

وكان السَّلف الصَّالح يجتهدون غاية الاجتهاد في تصحيح نيَّاته، ويرون أنَّ الإخلاص مِن أعز الأشياء، وأشقَّها على النَّفس، وقال سفيان الثَّوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "مَا عَالَجْتُ شَيْئًا أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ نِيَّتِي، إِنَّهَا تَقَلَّبُ عَلَيَّ"(٢)، وقيل لسهل بن عبدالله التُّستري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أيُّ شيء أشدُّ على النَّفس؟ فقال: الإخلاص؛ لأنَّه ليس لها فيه نصيب"(٣).

(١) رواه ابن ماجه ح٢٥٣، وحسَّنه الألباني في صحيح وضعيف ابن ماجه ح٢٥٣.

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي، تحقيق: د. محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، (١/ ٣١٧).

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤١٦هـ، (٢/ ٩٢).

(٥١/٢) الوصيَّة بالحذر مِنَ الرِّياء

فَكُنْ مُخْلِصًـــا لَا تُرَاءِ بِفِعْـلٍ ... وَرَاقِــبْ لِــرَبِّ الْعِبَــادِ الْعَلِــيمْ

الرِّياءُ آفةٌ خطيرةٌ لطالب العلم، فإن فَقَدَ العلم إخلاص النِّيَّة، انتقل مِن أفضل الطَّاعات إلى أحطِّ المخالفات؛ حيثُ يُفسدُ العمل ويُحبط الأجر، "وعليه؛ فالتزم التَّخلُّص مِن كلِّ مَا يشوب نيَّتك في صدق الطَّلب؛ كحبِّ الظُّهور، والتَّفوُّق على الأقران، وجعله سلَّمًا لأغراض وأعراض، مِن جاه، أو مال، أو تعظيم، أو سُمعة، أو طَلَبِ محمدَة، أو صَرف وجوه النَّاس إليك، فإنَّ هذه وأمثالها إذا شابت النِّيَّة، أفسدتها، وذهبت بركة العلم؛ ولهذا يتعيَّن عليك أن تحمي نيَّتك مِن شَوب الإرادة لغير الله تعالى، بل وتحمي الحمى"[(١)]، وقد قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لَا تَطْلُبِ الْعِلْمَ رِيَاءً وَلَا تَتْرُكْهُ حَيَاءً"[(٢)].

والذي يطلبُ العلم لأجل أن يقول عنه النَّاس طالبُ علمٍ أو عالمٍ، أو غيرها مِنَ الأوصاف، فقد خَسِر ونَدِمَ يوم القيامة؛ لأنَّه لم يطلبه لوجه الله

---

(١) حلية طالب العلم (وهو مطبوع ضمن كتاب المجموعة العلمية)، بكر أبو زيد، دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤١٦هـ، ص١٤٢.

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم الأصبهاني، الناشر: السعادة، بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ، (١٠/ ٥٣).

تعالى، وإنَّما رياءً وسمعة، وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ"[1]، قال الإمام النَّووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند شرحه لهذا الحديث بأنَّه: "دليلٌ على تغليظ تحريم الرِّياء، وشدَّة عقوبته، وعلى الحثِّ على وجوب الإخلاص في الأعمال كما قال الله تعالى:

(١) رواه مسلم ح١٩٠٥.

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾[1]، وفيه أنَّ العمومات الواردة في فضل الجهاد إنما هي لمن أراد الله تعالى بذلك مخلِصًا، وكذلك الثَّناء على العلماء، وعلى المُنفقين في وجوه الخيرات، كلُّه محمولٌ على مَن فَعَلَ ذلك لله تعالى مخلصًا"[2].

وطالب العلم قد يُبتلى بالرِّياء في طلبه، أو تدريسه، أو خطبته، أو تصدُّره للنَّاس، أو فرحه بمدحهم، فينبغي أن يجاهد نفسه دائمًا، ويجدِّد نيَّته، ويستحضر أنَّ القبول عند الله تعالى وليس عند الخَلق.

(١) سورة البينة: ٥.

(٢) شرح صحيح مسلم، للنووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ، (١٣/ ٥١).

(٥١/٤) الوصيَّة بمراقبة الله تعالى

فَكُنْ مُخْلِصًـــا لَا تُرَاءِ بِفِعْـلٍ وَرَاقِــبْ لِــرَبِّ الْعِبَــادِ الْعَلِــيمْ

وهذه الوصيَّة وصيَّة عظيمة، فمراقبة الله تعالى في السِّرِّ والعلن هي الأساس الذي يوجِّه طالب العلم نحو الإخلاص، وتجعله يرى العلم عبادة، ويحرص على تطبيقه عملاً؛ لأنَّ مراقبته لله تعالى في السِّرِّ والعلن تجعله يستمرُّ في طلبه، وإلَّا فَقَدَ علمه.

وإنَّ ممَّا ينبغي على طالب العلم أن يداوم على مراقبة الله تعالى في السِّرِّ والعلن، وفي جميع حركاته وسكناته، وأقواله وأفعاله، فهي ثمرة العلم الصَّحيح، ومِنَ الأسباب الجليلة لفتح أبواب العلم والبركة فيه، وتدعوه إلى تحسين العبادة، قال ابن منظور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "مَنْ راقَبَ اللهَ أَحسَن عمَله"[(١)].

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[(٢)]، وقال: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[(٣)]، وجعل النَّبيُّ ﷺ مقام المراقبة أعلى مراتب الدِّين فقال في حديث جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لمَّا سأله عن الإحسان فقال:

---

(١) لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ، (١٣/ ١١٧).

(٢) سورة النساء: ١.

(٣) سورة الحديد: ٤.

"أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ"(١)؛ ولذلك قال النَّاظم وهو يوصي طالب العلم: (وَرَاقِبْ لِرَبِّ الْعِبَادِ الْعَلِيمْ): الذي يعلمُ خفيَّات أموره وبواطنها، وأنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَالِمٌ ومُطَّلِعٌ على جميع أحواله وتصرُّفاته وكلّ مَا يَصدر منه.

وطالب العلم أحوج النَّاس إلى مراقبة الله، ويكون حاله في خلوته كحاله أمام النَّاس؛ لأنَّ عِلمه حجَّة عليه قبل أن يكون حجَّة له، ولأنَّ النَّاس قد يطَّلِعون على ظاهره، لكنَّ الله تعالى يعلمُ سرَّه وعلانيته، ويعلمُ صِدق قصده مِن عدمه، فإذا عَلِمَ طالبُ العلم ذلك فإنَّه يخافُ ويرهبُ مِنَ الله تعالى ويخشاه.

ولذلك كان السَّلف يخافون مِن فساد القلوب مع كثرة الأعمال، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المراقبة: دوام علم العبد، وتيقُّنه باطلاع الحقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على ظاهره وباطنه. فاستدامته لهذا العلم واليقين هي المراقبة وهي ثمرة علمه بأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رقيبٌ عليه، ناظرٌ إليه، سامعٌ لقوله، وهو مطَّلعٌ على عمله كلَّ وقتٍ وكلَّ لحظةٍ، وكلَّ نَفَسٍ وكلَّ طرفة عين"(٢).

---

(١) رواه البخاري ح٥٠؛ ومسلم ح٨.

(٢) مدارج السالكين، لابن القيم، (٢/ ٦٥).

(٥/٥١) الوصيَّة بالتَّحذير مِنَ العُجب والغرُور بالنَّفس

وَلَا تَعْجَبَنَّ بِنَفْسِكَ يَوْمًا ... فَإِنَّ الْغُرُورَ هَلَاكُ الْحَلِيمْ

والإعجابُ بالنَّفس واحتقار الآخرين داءٌ عظيمٌ وخُلُقٌ ذميم، ومِنَ الأمور التي تخلُّ بالنِّيَّة، وهو سببٌ للخذلان والحرمان، وهو قبيح بالنسبة لعموم النَّاس، وهو في مَن ينتسب إلى العلم وطلبه أقبح، قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إعجاب المرء بنفسه هو ملاحظته لها بعين الكمال مع نسيان نعمة الله، فإن احتقر غيره مع ذلك فهو الكبر المذموم"(١).

وعندما يُصابُ طالب العلم بالعُجب والغُرور فإنَّه يجرُّهُ إلى الكِبر والتَّعالي والتَّرفُّع على النَّاس، ويَعْمى عن الحقِّ: فيرى الحقَّ باطلاً والباطل حقًّا؛ لذلك فإنَّه ينبغي لطالب العلم البُعد عن هذا الخُلق السَّيِّء، ويستشعِر مِنَّة الله تعالى وتفضُّله عليه بالعلم، وأنَّه لولا فضل الله عليه لَمَا حصَّل مِنَ العلم شيئًا.

وقد جاء في الحديث التَّحذير مِن هذا المرض فَعَنْ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "يَظْهَرُ الْإِسْلَامُ حَتَّى يَخْتَلِفَ التُّجَّارُ فِي الْبَحْرِ، وحَتَّى تَخُوضَ الْخَيْلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ يَظْهَرُ قَوْمٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، يَقُولُونَ:

---

(١) فتح الباري، لابن حجر، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، صححه وأشرف علىٰ طبعه: محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ، (١٠/ ٢٦١).

مَنْ أَقْرَأُ مِنَّا؟ مَنْ أَفْقَهُ مِنَّا؟ مَنْ أَعْلَمُ مِنَّا؟ ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: هَلْ فِي أُولَئِكَ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: أُولَئِكَ مِنْكُمْ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودِ النَّارِ"(١)، قال بعض العلماء: "إِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ دَلِيلٌ عَلَى ضِعْفِ عَقْلِهِ"(٢)، وقال بعضهم: "مَنْ أُعْجِبَ بِرَأْيِهِ ذَلَّ، وَمَنِ اسْتَغْنَى بِعَقْلِهِ زَلَّ، وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى النَّاسِ ذَلَّ وَمَنْ خَالَطَ الْأَنْذَالَ حُقِّرَ وَمَنْ جَالِسَ الْعُلَمَاءَ وُقِّرَ"(٣).

وفي قوله: (إِنَّ الْغُرُورَ هَلَاكُ الْحَلِيمْ): تعني أنَّ العُجب أصل الهلاك، حتى لو كان الشَّخص يتمتَّع بالحلم والصبر؛ لأنَّه يؤدِّي إلى الكِبر والغُرور الذي يُنسي الإنسان نعمة الله تعالى عليه، وفي الحديث عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ، وَثَلَاثٌ مُنَجِّيَاتٍ، وَثَلَاثٌ كَفَّارَاتٌ، وَثَلَاثٌ دَرَجَاتٌ. فَأَمَّا الْمُهْلِكَاتُ: فَشُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ. وَأَمَّا الْمُنَجِّيَاتُ: فَالْعَدْلُ فِي الْغَضَبِ، وَالرِّضَى، وَالْقَصْدُ فِي الْفَقْرِ، وَالْغِنَى، وَخَشْيَةُ اللَّهِ فِي السِّرِّ، وَالْعَلَانِيَةِ. وَأَمَّا الْكَفَّارَاتُ: فَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ،

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط ح٦٢٤٢، وحسَّنه الألباني لغيره في صحيح الترغيب والترهيب ح١٣٥.

(٢) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٤هـ، (١/ ٥٦٩).

(٣) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، (١/ ٥٦٩).

وَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ فِي السَّبَرَاتِ، وَنَقْلُ الْأَقْدَامِ إِلَى الْجَمَاعَاتِ. وَأَمَّا الدَّرَجَاتُ: فَإِطْعَامُ الطَّعَامِ، وَإِفْشَاءُ السَّلَامِ، وَصَلَاةٌ بِاللَّيْلِ، وَالنَّاسُ نِيَامٌ"(١)، وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "الْهَلَاكُ فِي اثْنَتَيْنِ، الْقُنُوطِ وَالْعُجْبِ"(٢).

(١) رواه الطبراني في الأوسط ح ٥٧٥٤، وحسَّنه الألباني لغيره في صحيح الترغيب والترهيب ح ٢٦٠٦.

(٢) الزواجر عن اقتراف الكبائر، لابن حجر، دار الفكر، ط١، ١٤٠٧هـ، (١/ ١٢٢).

(٥١/٦) الوصيَّة بالاهتمام بطلب العلم

وَبَعْـدُ تَعَلَّمْ فَلِلْعِلْمِ فَضْـــلٌ ... وَشَـــأْنٌ رَفِيعٌ عَلَا كَالنُّجُومْ
فَبِـالْعِلْمِ تَنْجُوْ وَبِـالْعِلْمِ تَسْمُوْ ... وَبِالْعِلْمِ تَخْشَـــى فَجِدْ فِي الْعُلُومْ

يُشير النَّاظم – حفظه الله – في هذين البيتين إلى علوِّ شأن العلم الشَّرعي فقال: (فَلِلْعِلْمِ فَضْلٌ): الفضلُ هنا: يعني المزيَّة والزِّيادة في الخير. فالعلمُ له فضلٌ كبيرٌ على الإنسان، حيث يرفعه إلى أعلى المراتب، ويجعله قادرًا على التَّمييز بين الحقِّ والباطل، كما يُشير إلى الأجر والثَّواب الذي يحصل عليه المتعِّلم، وقد قال الإمام الشَّافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "طلب العلم أفضل مِن صلاة النَّافلة[١]، وليس بعد أداء الفرائض شيءٌ أفضل مِن طلب العلم[٢]، ومَن لا يُحبُّ العلم فلا خير فيه، ولا يكن بينك وبينه معرفةً ولا صداقة"[٣].

---

(١) مناقب الشافعي، للبيهقي، تحقيق: السيد أحمد صقر، الناشر: مكتبة دار التراث، القاهرة، ط١، ١٣٩٠هـ، (٢/ ١٣٨).

(٢) مناقب الشافعي، للبيهقي، (٢/ ١٣٨).

(٣) مناقب الشافعي، للبيهقي، (٢/ ١٤٤).

وممَّا جاء في فضله: أنَّ الله تعالى رَفَعَ أهله درجات فقال: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾(١)، ونفى المساواة بينهم وبين غيرهم فقال: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾(٢)، واستشهد الله تعالى أهل العلم على أشرف مشهود به وهو التَّوحيد، وَقَرَنَ شهادتهم بشهادته وبشهادة ملائكته فقال: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(٣)، ومَن سَلَكَ طريق العلم فقد أراد الله تعالى به خيرًا كثيرًا، ففي الحديث عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: "مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ"(٤)، وهو طريقُ الفوز بالجنَّة، وسبيل النَّجاة مِنَ النَّار، كما في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ

---

(١) سورة المجادلة: ١١.

(٢) سورة الزمر: ٩.

(٣) سورة آل عمران: ١٨.

(٤) رواه البخاري ح٧١؛ ومسلم ح١٠٣٧.

رَسُولُ اللهِ ﷺ: "وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ"(١)، وإنَّ العلم يبقى أثره للإنسان حيًّا وميِّتًا، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ"(٢).

فالعلماء أمانٌ – بإذن الله – لأهل الإسلام، وسياجٌ لأهل الإيمان، وموتُهم إيذانٌ بنقص الدِّين، وإنذارٌ بظهور البدع، وعلامةٌ على استعلاء الجهلة والمُخرِّفين والمُنحرفين، وفي الحديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "إِنَّ اللَّهَ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا"(٣).

وكما أنَّ للعلمِ فضلٌ، فإنَّ له (شَأْنٌ رَفِيعٌ): حيثُ يرفعُ صاحبه إلى أعلى المراتب، ويجعله مُكرَّمًا بين النَّاس، فكم مِن ناسٍ هم مِن أشدِّ النَّاس فقرًا وأقلَّهم

---

(١) رواه مسلم ح٢٦٩٩.

(٢) رواه مسلم ح١٦٣١.

(٣) رواه البخاري ح١٠٠؛ ومسلم ح٢٦٧٣.

مؤنةً غير أنَّهم طلبوا العلم وحصَّلوه فرفعهم الله تعالى، فوقَّرهم النَّاس وقدَّموهم ورفعوا مِن شأنهم؛ كلُّ ذلك لِمن سعى في طلب العلم واجتهد في تحصيله وعَمِلَ بمقتضاه ودعا النَّاس إليه، وهذ مصداق قول الله تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾[1]، وتكون هذه الرِّفعة في الدُّنيا والآخرة.

(عَلَا كَالنُّجُومْ): هذا تعبيرٌ مجازي، يدلُّ على علوِّ مكانة العلم وأهميَّته، فالنُّجوم في السَّماء ترتفع وتبدو بعيدة عن الأرض، وهذا يُشير إلى أنَّ العلم يرتفع ويرتقي. والمقصود بقوله: (عَلَا كَالنُّجُومْ): يعني أنَّ العلم يُضيء الطَّريق ويهدي الإنسان إلى الصَّواب، مثلما تُضيء النُّجوم ويُهتدى بها في الظُّلمات.

وقوله: (فَبِالْعِلْمِ تَنْجُوْ وَبِالْعِلْمِ تَسْمُوْ ..... وَبِالْعِلْمِ تَخْشَى): ذكر شيخنا – حفظه الله – ثلاثة أمور يتحصَّل عليها طالب العلم وهي: النَّجاة والسُّمو والخشية:

(فَبِالْعِلْمِ تَنْجُوْ): لأنَّه حصنُ الأمان، وسبب النَّجاة مِنَ الفتن، فهو يميِّز الحقَّ مِنَ الباطل والصَّحيح مِنَ السَّقيم، ويبصِّر المسلم بطريق الهداية، ويحميه مِنَ الوقوع مِن فتن الشُّبهات والشَّهوات، وتكون به النَّجاة مِنَ الضَّلال في

---

(١) سورة المجادلة: ١١.

الدُّنيا، ومِن عذاب الآخرة؛ فيُعرف به الحقَّ فنتَّبعه، ويُعرف الباطل فنجتنبه؛ لذلك كان مِنَ المهم على المسلم تحصيل العلم والرُّجوع إلى العلماء والالتفاف حولهم وسؤالهم والاستنارة بآرائهم فهو خير معين على التَّثبُّت والثَّبات وعدم الوقوع في الزَّيغ والانحراف، قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾[2]، وإذا فَقَدَ المسلم العلم الشَّرعي وكان جاهلاً، ولم يرجع إلى العلماء الرَّبَّانيين تخبَّطَ في الفتن وأودت به إلى المهالك وهوت به في وادٍ سحيق.

---

(١) سورة النحل: ٣٤-٤٤.

(٢) سورة النساء: ٥٩.

(وَبِالْعِلْمِ تَسْمُوْ): فهو السَّبيل للارتقاء والعلوِّ في الدُّنيا والآخرة، وبه تسمو الأمم وترتقي، وهو إكسير الأمن والأمان، وضمانة التَّقدُّم والازدهار والسَّعادة والاطمئنان.

هَل العِلْمُ فِي الإسْلَام إلَّا فَرِيضَةٌ وَهَلْ أُمَّةٌ سَادَتْ بِغَيْرِ التَّعَلُّمِ

(وَبِالْعِلْمِ تَخْشَى): وهكذا العلم النَّافع فإنَّه يُورثُ صاحبه خشية الله تعالى وتعظيمه والخوف منه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[1]، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أي إنَّما يخشاه حقَّ خشيته العلماء العارفون به؛ لأنَّه كلَّما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم، الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى، كلَّما كانت المعرفة به أتمَّ والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر"[2]. فثمرة العلم خشية الله تعالى، فَعَن عَبْدِ اللَّهِ بنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "لَيْسَ الْعِلْمُ بِكَثْرَةِ الرِّوَايَةِ وَلَكِنَّ الْعِلْمَ الْخَشْيَةُ"[3]، فالذي لا يخشى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليس مِن أهل العلم وإن ادَّعى ذلك،

---

(١) سورة فاطر: ٢٨.

(٢) تفسير ابن كثير، لابن كثير، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ، (٦/ ٤٨٢).

(٣) الزهد، للإمام أحمد، ص١٣١.

وضرب مِن كل علمٍ بطرف. فالزم خشية الله تعالى في السِّرِّ والعلن، فإنَّ خير البريَّة مَن يخشى الله تعالى.

(فَجِدْ فِي الْعُلُومْ): وبعد معرفة فضل العلم وأهمِّيته ومكانته اجتهد واعمل في طلبه، فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[1]، فاحزموا أمركم وأصلحوا شأنكم وشمِّروا عن سواعدكم لطلب العلم، فلا يجد ولا يجتهد في طلب العلم ومراجعته وضبطه وإتقانه إلَّا الأمين الذي يستشعر أنَّه مؤتمن مِن أمَّة محمَّد ﷺ على قول الله تعالى وقول رسوله ﷺ. وإيَّاكم والتَّأخر والتَّكاسل والعجز فهو الدَّاء القاتل الموصل للهلاك.

والخلاصة أنَّ هذا البيت رَسَمَ لطالب العلم ثمرات العلم ودافع الطَّلب، فبالعلم ينجو مِنَ الضَّلال والعذاب، ويسمو ويرتفع في الدَّرجات، ويخشى الله تعالى فتتحقَّق العبوديَّة؛ فمن عَرَفَ هذه الثَّمرات، هانَ عليه التَّعب، وسَهُلَ عليه الطَّلب، وثَبَتَ على الطَّريق.

(١) سورة طه: ١١٤.

(٥١/٧) الوصيَّة بالعناية بحفظ الكتاب والسُّنَّة

وَبَـادِرْ بُـنَيَّ بِحِـفْـظِ الْـقُـرَانِ وَحِفْظِ حَدِيثِ الرَّسُـــولِ الْكَرِيمْ

يوصي شيخنا – حفظه الله – بحفظِ الكتاب والسُّنَّة ففيهما النُّور والهدى والتَّوجيهات، وهما الأصل في العلم الشَّرعي وهو الاستمداد مِنَ الكتاب والسُّنَّة، وأعظم مَا يعتني به طالب العلم، ويعوِّل عليهما في عِلمه؛ لذلك فهو يعيش بين هذين الأصلين، ويهتمُّ بحفظهما؛ لأنَّ العلم: قال الله قال رسوله، وأصل العلوم وأُسِّها كتاب الله تعالى، ومَا جاء في بيانه على لسان نبيِّه ﷺ، وكما قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نونيَّته[1]:

الْعِلْمُ قَـالَ اللهُ قَـالَ رَسُـــولُهُ قَالَ الصَّـــحَابَةُ هُمْ أُولُوا الْعِرْفَانِ
مَا الْعِلْمُ نَصْبكَ لِلْخِلَافِ سَفَاهَةً بَيْنَ الرَّسُـــولِ وَبَيْنَ رَأْيِ فُلَانِ

وقد اهتمَّ السَّلف بذلك، ومِن اهتمامهم بحفظ القرآن الكريم قبل طلب العلم قول الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ينبغي للطَّالب أن يبدأَ بحفظ كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، إذ كان أجلّ العلوم وَأَوْلاها بالسَّبق والتَّقديم"[2]، وقال الوليد بن

(١) القصيدة النونية، لابن القيم، الناشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢، ١٤١٧هـ، ص٢٢٦.

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي، (١/ ١٠٦).

مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "كنَّا إذا جالسنَا الأوزاعيَّ فرأَى فِينَا حَدَثًا - أي ولدًا صغيرًا - ، قال: "يَا غُلام، قَرَأْتَ الْقُرْآنَ؟ فإن قال: نعم، قال: اقرَأْ: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ ﴾[1]، وإنْ قال: لَا، قال: اذْهَبْ، تعلَّمِ القُرآنَ قَبْلَ أَنْ تَطلُبَ العِلمَ"[2]، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "طلب حفظ القرآن: فهو مقدَّم على كثير ممَّا تسمِّيه النَّاس علمًا: وهو إمَّا باطل، أو قليل النَّفع. وهو أيضًا مقدَّم في التَّعلُّم في حقِّ مَن يريد أن يتعلَّم علم الدِّين مِنَ الأصول والفروع، فإنَّ المشروع في حقِّ مِثل هذا في هذه الأوقات أن يبدأ بحفظ القرآن، فإنَّه أصل علوم الدِّين"[3].

وأمَّا اهتمام السَّلف بحفظ الحديث، فقد قال إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال لي أبي: "يا بني، اطلب الحديث، فكلَّما سمعتَ حديثًا، وحفظته، فلك درهم، فطلبتُ الحديث على هذا"[4]، قال أبو زُرعة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "كان أحمدُ بن

---

(١) سورة النساء: ١١.

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للبغدادي، (١/ ١٠٨).

(٣) الفتاوىٰ الكبرىٰ لابن تيمية، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٨هـ، (٢/ ٢٣٥).

(٤) شرف أصحاب الحديث، للخطيب البغدادي، تحقيق: د. محمد سعيد خطي اوغلي، دار إحياء السنة النبوية، أنقرة، ص٦٦.

حنبل يحفظُ ألفَ ألفِ حديثٍ (أي: مليونًا)، فقيل له: ما يُدْريك؟ قال: ذاكرتُه وأخذتُ عليه الأبوابَ"[(١)]، وقال أبو زُرْعَة عن نفسه: "أحفظُ مائتي ألفِ حديثٍ، كما يحفظُ الإنسانُ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾[(٢)]، وفي المذاكرةِ ثلاثمائةِ ألفِ حديثٍ"[(٣)].

وممَّا يدلُّ على فضل الحفظ قوله تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾[(٤)]، وبوَّب الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب العلم فقال: (باب حفظ العلم) وأورد فيه قول أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "إِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ أَكْثَرَ أَبُو هُرَيْرَةَ، وَلَوْلاَ آيَتَانِ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا حَدَّثْتُ حَدِيثًا، ثُمَّ يَتْلُو: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟

---

(١) الحث علىٰ حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ، لابن الجوزي، حققه وعلق عليه: المستشار الدكتور فؤاد عبدالمنعم، الناشر: مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ط٢، ١٤١٢هـ، ص٥٣.

(٢) سورة الإخلاص: ١.

(٣) الحث علىٰ حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ، ص٧٦.

(٤) سورة العنكبوت: ٤٩.

وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1]، إِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ المُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمُ الصَّفْقُ بِالأَسْوَاقِ، وَإِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ الأَنْصَارِ كَانَ يَشْغَلُهُمُ العَمَلُ فِي أَمْوَالِهِمْ، وَإِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ كَانَ يَلْزَمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِشِبَعِ بَطْنِهِ، وَيَحْضُرُ مَا لاَ يَحْضُرُونَ، وَيَحْفَظُ مَا لاَ يَحْفَظُونَ"[2].

❋❋❋

(١) سورة البقرة: ١٥٩-١٦٠.

(٢) رواه البخاري ح١١٨.

(٥١/٨) الوصيَّة بحفظِ المتون

وَأُوصِـيكَ أَيْضًـا بِحِفْـظِ الْمُتُـونِ وَأَخْـذِ الْفُنُـونِ بِجِـدٍّ لَـزِيمْ

وهنا يوصي شيخنا – حفظه الله – بعد حفظ الكتاب والسُّنَّة بحفظ المتون، إذ أنَّ حفظ المتون العلميَّة، وأَخْذ الفنون قاعدة ذهبيَّة في طلب العلم، تعني حِفظ مختصرات العلوم كالعقيدة، والحديث، والفقه، والنَّحو، وغيرها؛ لفهم أصول الفنِّ والتَّوسُّع فيه، ولأنَّها تُساعد على استحضار المسائل، وتوفير الوقت، بشرط فَهم المتن وفهم شروحه، وليس الحفظُ المجرَّد.

والمتون هي أصول العلوم، ومفاتيح الفهم، وقواعد البناء العلمي، وقد درجَ العلماء قديمًا وحديثًا على حفظها، ثمَّ شرحها، وفهمها، ومراجعتها، حتى ترسخ مسائل العلم في الصُّدور.

قال النَّووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وَبعدَ حِفْظِ القرآن يحفظ مِن كُلِّ فَنٍّ مُختصَرًا، ويبدأ بالأهم، وَمِن أهمِّها الفقه والنَّحو، ثمَّ الحديث والأصول، ثمَّ الباقي على مَا تيسَّر، ثمَّ يشتغل باستشراح محفوظاته"(١)، وقال ابن جماعة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ثمَّ يحفظ مِن كُلِّ فَنٍّ مُختصَرًا يجمعُ فيه بين طرفيه، مِنَ الحديث وعلومه، والأصولين، والنَّحو، والتَّصريف، ولا يشتغل بذلك كُلِّه عن دراسة القرآن،

(١) المجموع شرح المهذب، للإمام النووي، دار الفكر، (١/ ٣٨).

وتعهُّده، وملازمة وِردِهِ منه في كُلِّ يوم، أو أيام، أو جمعة، وليحذر مِن نسيانه بعد حفظه، فقد وَرَدَ فيه أحاديث تزجر عنه"(١).

ولا يكونُ طالب العلم راسخًا في العلم بدون حفظ أصول العلم في كلِّ فنٍّ مختصرًا، فلابُدَّ مِن حِفظِ المتون، وقد قيل: "فاحفظ فكلُّ حافظٍ إمام"، "ومَن حَفِظَ المتون حَازَ الفنون"، "وخير العلوم مَا ضُبِطَ أصله واستُذكِرَ فرعه"، "ومَن حَفِظَ الأصول ضَمِنَ الوصول"، "ومَن لم يُتقِن الأصول حُرِمَ الوصول", قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وليجتهد أن يعتصم في كلِّ بابٍ مِن أبواب العلم بأصلٍ مأثورٍ عن النَّبيِّ ﷺ"(٢).

ومِن أجمل البرامج لطالب العلم المبتدئ أن يحفظ بالتَّرتيب: الأصول الثَّلاثة، القواعد الأربع، الأربعون النَّوويَّة، الآجروميَّة، البيقونيَّة، تحفة الأطفال، عمدة الأحكام، الورقات، العقيدة الواسطيَّة، ثمَّ ينتقل إلى المتون الأكبر بحسب توجيه شيخه؛ لأنَّ الأصل في ذلك أن يكون الحفظ على شيخٍ متقن، مع الفهم والمراجعة المستمرَّة، فإنَّ المقصود مِن حفظ المتون هو رسوخ العلم والعمل به، لا مجرَّد حفظ الألفاظ.

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة، تحقيق محمد هاشم الندوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ص١٦.

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (١٠/ ٦٦٤).

وقوله: (وَأَخْذِ الْفُنُونِ بِجِدٍّ لَزِيمْ): أي خذ العلوم الشَّرعيَّة واللَّغويَّة بجدٍّ ومثابرةٍ واجتهادٍ، ومِن مصادرها الصَّحيحة، مع ملازمة العلماء، والاستمرار في التَّعلُّم وعدم الكسل والانقطاع، فإنَّ المشقَّة في البدايات يعقبها لذَّة في النِّهايات، ومَن جدَّ وصبر على الحفظ في شبابه، انتفع بعلمه في كبره، وكان أقرب إلى الرُّسوخ والإتقان.

(٥١/٩) الوصيَّة بحُسن الفَهم

وَأَوصِـــيكَ بِالْفَهْمِ فالْفَهْمُ أَصْـــلٌ وَسَـــلْ إِنْ جَهِلْتَ بِعَقْـلٍ حَلِيمْ

وهنا يوصي النَّاظم طالب العلم بأن يهتمَّ بالفَهم؛ لأنَّ الفَهم هو الأساس في العلم، فلا يكفي أن يحفظ النُّصوص دون أن يفهم معناها، فالمقصود منه استيعاب المعاني والدَّلالات، وفهم مقاصد الشَّريعة ومراداتها، ويمكِّنه مِن التَّمييز بين الحقِّ والباطل، وبين الصَّواب والخطأ.

وحُسنُ الفهم وصحَّة التَّصوُّر مِن نِعَمِ الله تعالى على طالب العلم، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "صحَّةُ الفَهم وحسن القصد مِن أعظم نعم الله التي أنعم بها على عبده، بل مَا أُعطي عبدٌ عطاءً بعد الإسلام أفضلُ ولا أجلُّ منهما، بل هما ساقا الإسلام، وقيامه عليهما، وبهما يأمن العبدُ طريق المغضوب عليهم الذين فَسَدَ قصدهم، وطريق الضَّالين الذين فَسَدَت فهومهم، ويصيرُ مِنَ المُنْعَمِ عليهم الذين حَسُنَت أفهامُهُم وقُصودُهُم، وهم أهلُ الصِّراط المستقيم الذين أُمِرنا أن نسأل الله أن يهدينا صراطَهُم في كلِّ صلاة، وصحَّةُ الفَهم نورٌ يقذفُهُ الله في قلب العبد، يميِّزُ به بين الصَّحيح والفاسد، والحقِّ والباطل، والهدى والضَّلال، والغيِّ والرَّشاد، وَيَمُدُّهُ حُسنَ القصد، وتحرِّي الحقِّ، وتقوى

الرَّبِّ في السِّرِّ والعلانية، ويقطعُ مَادَّتُهُ اتِّباعَ الهوى، وإيثارَ الدُّنيا، وَطَلَبَ محمَدةِ الخَلقِ، وتركَ التَّقوى"[(١)].

وفيما يتَّصل بالفَهم نجد أنَّ هناك نصوصًا في الكتاب والسُّنَّة في ذلك، فمن ذلك ثناء الله تعالى على نبيِّه سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والامتنان عليه بنعمة الفَهم فقال: ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾[(٢)]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في بيان دور العلماء في الفهم والاستنباط، والأمر بالرَّدِّ إليهم: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[(٣)]، وقد بوَّب الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب العلم بابًا في ذلك فقال: (بابُ الفَهمِ في العِلمِ) وأورد فيه بإسناده عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: صَحِبْتُ ابْنَ عُمَرَ إِلَى المَدِينَةِ فَلَمْ أَسْمَعْهُ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ، (١/ ٦٩).

(٢) سورة الأنبياء: ٧٩.

(٣) سورة النساء: ٨٣.

ﷺ إِلَّا حَدِيثًا وَاحِدًا، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَأُتِيَ بِجُمَّارٍ، فَقَالَ: "إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً، مَثَلُهَا كَمَثَلِ المُسْلِمِ"، فَأَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ: هِيَ النَّخْلَةُ، فَإِذَا أَنَا أَصْغَرُ القَوْمِ، فَسَكَتُّ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "هِيَ النَّخْلَةُ"(١).

وممَّا ينبغي التَّأكيد عليه بأنَّ الواجب على طالب العلم الجمع بين الحفظ والفهم، كما قال ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أوَّلُ العلم النِّيَّة، ثمَّ الاستماع، ثمَّ الفَهم، ثمَّ الحِفظ، ثمَّ العمل، ثمَّ النَّشر"(٢)، وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وللعلم سِتُّ مراتب: **أوَّلها**: حسن السُّؤال، **الثَّانية**: حسن الانصات والاستماع، **الثَّالثة**: حسن الفهم، **الرَّابعة**: الحفظ، **الخامسة**: التَّعليم، **السَّادسة**: وهي ثمرته وهي العمل به ومراعاة حدوده"(٣).

(١) رواه البخاري ح٧٢.

(٢) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، (١/ ٤٧٦).

(٣) مفتاح دار السعادة، لابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت، (١/ ١٦٩).

(٥١/١٠) الوصيَّة بحُسن السُّؤال

وَأَوصِـــيكَ بِالْفَهْمِ فالْفَهْمُ أَصْـــلٌ وَسَـــلْ إِنْ جَهِلْتَ بِعَقْـلٍ حَلِيمْ

وهنا يوصي النَّاظم طالب العلم بأن يسأل أهل العلم إذا لم يعلم شيئًا؛ امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[١]، فللسُّؤال أهميَّة كبرى في طلب العلم؛ فهو مِن مفاتيح العلم، ويُزيل الإشكالات، ويسهِّل الفَهم، قال الإمام الزُّهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "العلم خزائن وتفتحها المسألة"[٢]، وعن الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: "حُسنُ السُّؤال نصف العلم"[٣]، وطالبُ العلم يُصيبُ كثيرًا مِنَ العلم بالسُّؤال، وقد قيل لابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: كيف أصبت هذا العلم؟ قال: "بلسانٍ سؤول، وقلبِ عقول"[٤].

---

(١) سورة النحل: ٤٣؛ وسورة الأنبياء: ٧.

(٢) الآداب الشرعية والمنح المرعية، لابن مفلح، (٢/ ١٢٠).

(٣) عيون الأخبار، لابن قتيبة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ، (٣/ ٢٨).

(٤) تاريخ دمشق، لابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر، ١٤١٥هـ، (٧٣/ ١٨٥).

ويُعَدُّ السُّؤال الحَسن مِن طالب العلم النَّبيه عِلمًا مِنَ العلم، وفي حديث جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ المشهور أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: "فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ" دلالة واضحة على السُّؤال الحَسن مِنَ المُتعلِّم، كما قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "دلالة على أنَّ السُّؤال الحَسن يسمَّى عِلمًا وتعليمًا؛ لأنَّ جبريل لم يصدر منه سوى السُّؤال، ومع ذلك فقد سمَّاه مُعلِّمًا، وقد اشتهر قولهم: حُسن السُّؤال نصف العلم"(١).

(بِعَقْلٍ حَلِيمْ): وذلك بأن يتزيَّن طالب العلم بأدب السُّؤال مع شيخه، وهناك آدابًا كثيرة منها:

١- حُسنُ السُّؤال، والتَّلطُّف فيه: قال الإمام النَّووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "استحباب تلطف السائل في عبارته وسؤاله العالم"(٢).

٢- السُّؤال عمَّا ينفع: عن ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: مَا رأيتُ قومًا كانوا خيرًا مِن أصحاب رسول الله ﷺ، مَا سألوه إلَّا عن ثلاثَ عشرةَ مسألةً

(١) فتح الباري، لابن حجر، (١/ ١٢٥).

(٢) شرح صحيح مسلم، للنووي، (٦/ ١٦٥).

حتى قُبِضَ، كلُّهنَّ في القرآن، منهُنَّ: "يسئلونك عن الشَّهر الحرام، و"يسئلونك عن المحيض" وَشِبْهُهُ، مَا كانوا يسألون إلَّا عمَّا ينفعهم"[(١)].

٣- السُّؤال مِن أجل العمل لا المِراء والجدال: قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إنَّ التَّفقُّه في الدِّين، والسُّؤال عن العلم إنَّما يُحمَدُ إذا كان للعمل، لا للمراء والجدال"[(٢)].

٤- السُّؤال عن الأهم، فيُقدِّم السُّؤال عن الأمور الأكثر أهمِّية، قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يبدأ بالسُّؤال عن الأهم"[(٣)].

٥- اجتناب الأسئلة التي فيها تعنُّت: قال الإمام ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وَإِيَّاك وسؤال المعنِّت، ومراجعة المُكابر الَّذِي يطْلب الْغَلَبَة بِغَيْر علمٍ، فهما خُلُقا سوءٍ، دليلان على قلَّة الدِّين، وَكَثْرَة الفضول، وَضعف العقل، وَقُوَّة السُّخف"[(٤)].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، (٦/ ٣٣٣).

(٢) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، لابن رجب، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٧، ١٤٢٢ه، (١/ ٢٤٤).

(٣) فتح الباري، لابن حجر، (١/ ١٣٢).

(٤) الأخلاق والسير في مداواة النفوس، لابن حزم، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٢، ١٣٩٩هـ، ص٩٣.

٦- عدم المبادرة إلى السُّؤال إلَّا بعدما يفرغ الشَّيخ مِن كلامه: قال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومِنَ الأدب إذا روى المُحدِّث حديثًا، فَعَرَضَ للطَّالبِ في خلالهِ شيءٌ أراد السُّؤالَ عنه، ألا يسأل عنه في تلك الحال، بل يصبرُ حتى يُنهِي الرَّاوي حديثَهُ، ثمَّ يَسأل عمَّا عَرَضَ له"(١).

٧- السُّؤال عمَّا لا يجهله السَّائل لِيُعْلِمَهُ للسَّامع: قال النَّووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ينبغي لِمَن حَضَرَ مجلس العالِم إذا عَلِمَ بأهلِ المجلس حاجةً إلى مسألةٍ لا يسألون عنها أن يسألَ هو عنها، ليحصُلَ الجوابُ للجميع"(٢).

٨- عدم السُّؤال عمَّا لا يُفيد: قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "سألني رجلٌ مرَّة عن يأجوجَ ومأجوجَ أمسلمونَ هُم؟ فقلتُ له: أَحَكَمْتَ العلمَ حتى تسأل عن ذا؟"(٣)، وسُئل عن مسألةٍ فغضِبَ، وقال: "خُذ وَيْحَكَ فيما تنتفعُ به، وإيَّاك وهذه المُحدَثَة، وخُذ في شيءٍ فيه حديثٌ"(٤).

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للبغدادي، (١/ ٢١١).

(٢) شرح صحيح مسلم، للنووي، (١/ ١٦٠).

(٣) الآداب الشرعية والمنح المرعية، لابن مفلح، (٢/ ٦٩).

(٤) الآداب الشرعية والمنح المرعية، لابن مفلح، (٢/ ٦٩).

(٥١/١١) الوصيَّة بالتَّدرُّج في طلب العلم وعدم العجلة في تحصيله

تَـدَرَّجْ عَـلَى سُـلَّمِ الْعِلْـمِ وَاصْـبِرْ إِذَا كُنْـتَ تَرْنُـو لِقَصْـدٍ عَظِـيمْ

قوله: (تَدَرَّجْ): التَّدرُّج هو الانتقال مِن مرحلةٍ في العلم إلى مرحلة أخرى أعلى للوصول إلى الغاية والهدف المنشود.

وهذه مِنَ الوصايا العظيمة لطالب العلم بأن يتدرَّج في طلب العلم؛ فإنَّ العلم بحرٌ واسع، لا يُنال دفعة واحدة، وإنَّما يُنال شيئًا فشيئًا، ومسألة بعد مسألة، وفنًّا بعد فنٍّ، وطول ملازمة لأهل العلم حتى يرسخ في القلب ويثبت في العقل.

وقد دلَّ القرآن الكريم على مبدأ التَّدرُّج في التَّعليم، فإنَّ الله تعالى أنزل القرآن مُنجَّمًا خلال ثلاث وعشرين سنة تثبيتًا للقلوب، وتيسيرًا للحفظ والفهم، قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾[1]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾[2]، وكان النَّبيُّ ﷺ يربِّي

(١) سورة الإسراء: ١٠٦.

(٢) سورة الفرقان: ٣٢.

أصحابه بالتَّدرُّج، فيعلِّمهم الأصول قبل الفروع، ويغرس الإيمان في القلوب قبل كثرة الأحكام، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا "إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ الْمُفَصَّلِ، فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ[1] إِلَى الإِسْلاَمِ نَزَلَ الحَلاَلُ وَالحَرَامُ"[2]، ثمَّ ذكرت أنَّ الأحكام نزلت بعد رسوخ الإيمان.

ولهذا كان السَّلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ يسيرون في طلب العلم على هذا المنهج، فلا ينتقلون إلى كتابٍ حتى يحكموا الذي قبله، ولا إلى علمٍ حتى يتقنوا أصوله، قال الزُّهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "لَا تَأْخُذِ الْعِلْمَ جُمْلَةً؛ فَإِنَّ مَنْ رَامَ أَخْذَهُ جُمْلَةً ذَهَبَ عَنْهُ جُمْلَةً وَلَكِنِ الشَّيْءُ بَعْدَ الشَّيْءِ مَعَ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ"[3].

والتَّدرُّج يكون مِن صغار العلم إلى كِباره، قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحه: باب: العلم قبل القول والعمل: "قال ابن عباس: ﴿ كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ ﴾[4] حلماء فقهاء، ويقال: الرَّبَّاني الذي يُربِّي النَّاس بصغار العلم قبل

---

(١) أي: رجعوا واجتمعوا عليه وكثروا.

(٢) رواه البخاري ح٤٩٩٣.

(٣) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، (١/ ٤٣١).

(٤) سورة آل عمران: ٧٩.

كباره"[١]. وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "تَنْبِيهٌ لأهل العلم على تربية الأمَّة كَمَا يربِّي الوَالِد وَلَده فيربُّونهم بالتَّدريج، والتَّرقِّي، مِن صغَار العلم إِلى كباره، وتحميلهم مِنهُ مَا يُطِيقُونَ، كَمَا يفعل الأبُ بولده الطِّفل فِي إيصال الغذَاء إليه"[٢]، ويكون التَّدرُّج في الطَّلب أيضًا بالبداءة بالأهمِّ فالأهم، قال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ "ولا يأخذُ الطَّالبُ نفسَهُ بما لا يُطيقُهُ، بل يقتصرُ على اليسيرِ الذي يضبِطُهُ ويُحكِمُ حفظَهُ ويُتقِنُهُ"[٣]، وقال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يذكر آداب المتعلِّم: "أن لا يخوض في فنٍّ مِن فنون العلم دفعةً، بل يراعي التَّرتيب ويبتدئ بالأهمِّ ... أن لا يخوض في فنٍّ حتَّى يستوفي الفنَّ الذي قبله، فإنَّ العلوم مرتَّبة ترتيبًا ضروريًّا، وبعضها طريق إلى بعض، والموفَّق مَن راعى ذلك التَّرتيب والتَّدرُّج"[٤].

(١) صحيح البخاري، للإمام البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ، (١/ ٢٤).

(٢) مفتاح دار السعادة، لابن القيم، (١/ ٦٦).

(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للبغدادي، (١/ ٢٣١).

(٤) إحياء علوم الدين، للغزالي، دار المعرفة، بيروت، (١/ ٥٢).

(٥١/١٢) الوصيَّة بلزوم الصَّبر على طلب العلم

تَـدَرَّجْ عَـلَى سُـلَّمِ الْعِلْـمِ وَاصْـبِرْ إِذَا كُنْـتَ تَرْنُـو لِقَصْـدٍ عَظِـيمْ

وفي هذا البيت يوصي النَّاظم طالب العلم إذا أراد أن يصل إلى هدفٍ كبير وهو العلم، فعليه بلزوم الصَّبر على طلب العلم؛ لأنَّ مَن أراد هذا الشَّأن وطَّن نفسه على تحمُّل المشاق وخوض غمار الصِّعاب، والتَّغلُّب على عوائق الانشغال بالدُّنيا أو الإحباط، والمثابرة على الدِّراسة، وتقييد فرائد الفوائد، وإخلاص النِّيَّة لله تعالى، وفي صحيح مسلم عن يحيى بن أبي كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ "لا يُستطاعُ العلم براحة الجسم"[(١)]. ولمَّا ذكر الله تعالى أئمَّة الهدى بيَّن أنَّ سبب إمامتهم هو الصَّبر واليقين فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾[(٢)].

فطالب العلم يحتاج إلى الصَّبر في جميع مراحل طلبه؛ فيصبر على حفظ المتون، وعلى فهم المسائل، وعلى ملازمة العلماء، وعلى كثرة المراجعة، وعلى طول الطَّريق، وعلى العمل بما تعلَّم، وعلى تعليم النَّاس، ويصبر على كلِّ التَّحدِّيات: كالصَّبر على صعوبة الفهم، وتحمُّل السَّهر، والتِّرحال، والغربة في

---

(١) أخرجه مسلم برقم ٦١٢.

(٢) سورة السجدة: ٢٤.

سبيل طلبه، والتَّحلِّي بآداب المتعلِّم، وقد قال الإمام الشَّافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "حقٌّ على طلبة العلم بلوغُ غايةِ جهدِهِم في الاستكثار مِن عِلْمِهِ، والصَّبرُ على كلِّ عارضٍ دون طَلَبِهِ، وإخلاصُ النِّيَّة لله في استدراكِ عِلْمِهِ نصًّا واستنباطًا، والرَّغبةُ إلى الله في العَوْنِ عليه"(١).

ومِن صور السَّلف في طلب العلم: قال ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: "طلبتُ العلمَ فلم أجدهُ أكثرَ منه في الأنصار، فكنتُ آتي الرَّجُلَ فأسألُ عنه فيقالُ لي: نائمٌ، فأتوسَّدُ ردائي ثمَّ أضطجعُ حتى يخرجَ إلى الظُّهرِ فيقول: متى كنتَ ههنا يا ابن عمِّ رسول الله؟ فأقول: منذُ وقتٍ طويلٍ، فيقول: بئسَ مَا صنعتَ، هَلَّا أعلمتني؟ فأقولُ: أردتُ أن تخرُجَ إليَّ وقد قضيتَ حَاجَتَكَ"(٢). وقال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ورحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر، إلى عبد الله بن أنيس، في حديث واحد"(٣).

---

(١) أحكام القرآن للشافعي، للبيهقي، كتب هوامشه: عبد الغني عبد الخالق، قدم له: محمد زاهد الكوثري، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٤١٤هـ، (١/ ٢١).

(٢) مسند الدارمي المعروف بسنن الدارمي، للإمام الدَّارمي، تحقيق: نبيل هاشم الغمري، دار البشائر، بيروت، ط١، ١٤٣٤هـ، ص٢٠١.

(٣) صحيح البخاري، للإمام البخاري، (١/ ٢٦).

وقال سعيد بن المُسيِّب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إنْ كنتُ لأسيرُ الليالي والأيامَ في طَلَبِ الحديثِ الواحدِ"(١)، وقال الشَّعبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لو أنَّ رجُلاً سَافرَ مِن أقصى الشَّام إلى أقصى اليمن؛ ليسمعَ كلمةٌ حِكمةٍ مَا رأيتُ سَفَرَهُ ضَاعَ"(٢).

ومِنَ الصَّبر: أن يصبرَ طالب العلم على شيخه، ويحتمل شدَّته إن كان شديدًا، ويحترم سكوته فيما لا يحبُّ الكلام فيه، ومِثلُ ذلك صَبْرُ نبيّ الله موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على نَصَبِ الأسفار على الخضر، كما أخبرَ الله تعالى في كتابه بقوله: ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾(٣)، ولم يطُل صبره حتى قال له الخضر: ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾(٤).

---

(١) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، (١/ ٣٩٥).

(٢) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، (١/ ٣٩٩).

(٣) سورة الكهف: ٦٦-٧٠.

(٤) سورة الكهف: ٧٨.

وعليه: فإنَّه ينبغي لطالب العلم أن يعوِّد نفسه على الصَّبر، وأن يحرص عليه، حتى يُحصِّل هذا العلم وينتفع به.

(٥١/١٣) الوصيَّة بأدب طالب العلم مع شيخه ومعلِّمه

وَكُــنْ لِلشُّيُــوخِ مُجِــلًّا مُعِــزًّا ... بِفِعْــلٍ حَمِيــدٍ وَقَــوْلٍ سَــلِيمْ

قوله: (مُجِلًّا مُعِزًّا): يعني أن يكون الطَّالب محترمًا ومؤدَّبًا مع شيخه، قال سفيان الثَّوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "كان الرَّجل إذا أراد أن يكتب الحديث تأدَّبَ وَتَعَبَّدَ قبل ذلك بعشرين سنة"(١)، وقال ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "نحنُ إلى قليلٍ مِن الأدب أحوج مِنَّا إلى كثيرٍ مِنَ العلم"(٢)، وقال طاؤوس بن كيسان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "مِنَ السُّنَّةِ أَنْ يُوَقِّرَ الْعَالِمُ"(٣)، وهناك آدابًا كثيرة ينبغي لطالب العلم أن يتأدَّب بها مع شيخه، ومِن تلك الآداب:

١- التَّلطُّف والرِّفق معه: قال ابن جريج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لم أستخرج الذي استخرجت مِن عطاء إلَّا برفقي به"(٤).

٢- الصَّبر على صحبة الشَّيخ: قال ابن جماعة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أن يصبِر على جفوةٍ تصدُرُ من شيخه أو سُوءِ خُلُقٍ، ولا يصدُّه ذلك عن ملازمته وحسنِ

---

(١) حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصبهاني، (٦/ ٣٦١).

(٢) مدارج السالكين، لابن القيم، (٢/ ٣٥٦).

(٣) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، (١/ ٥١٩).

(٤) جامع بيان العلم، لابن عبد البر، (١/ ٤٢٣).

عقيدته، ويتأوَّلُ أفعاله التي يظهر أنَّ الصَّواب خلافها على أحسن تأويل، ويبدأ هو عند جفوة الشَّيخ بالاعتذار والتَّوبة ممَّا وقع، وينسب الموجب إليه، ويجعل العتب عليه، فإنَّ ذلك أبقى لمودَّة شيخه، وأحفظ لقلبه، وأنفع للطَّالب في دنياه وآخرته"(١).

٣- الدُّعاء للشَّيخ: قال ابن جماعة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أن يعرف له حقَّه ولا ينسى له فضله ... وينبغي أن يدعو له مُدَّة حياته"(٢).

٤- أن يَهاب الطَّالبُ شيخه: وقد بوَّب الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السَّامع: "هيبةُ الطَّالبُ للمحدِّث"(٣) ثمَّ ذكَرَ آثارًا عن السَّلف. وقال الشَّافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "رأيتُ مِن مالك بن أنس مَا رأيتُ مِن هيبته وإجلاله للعلم، فازددتُ لذلك حتى ربَّما كنتُ أكونُ في مجلسه، فأريدُ أن أَصْفَحَ الورقةَ فأصْفَحها صَفْحًا رقيقًا، هيبةً له؛ لئلَّا يسمع وَقْعَها"(٤).

٥- ألا يتقدَّم الطَّالب بين يدي شيخه بكلام: قال ابن جَماعة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لا يسبقَ الشيخَ إلى شرحِ مسألةٍ، أو جواب سؤال منه أو مِن غيره، ولا يظهر

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة، ص٩١.

(٢) تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة، ص٩١.

(٣) الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السَّامع، للخطيب، (١/ ١٨٣).

(٤) مناقب الشافعي، للبيهقي، (٢/ ١٤٤).

معرفته به، أو إدراكه له قبل الشَّيخ، فإن عَرَض الشَّيخ عليه ذلك ابتداء، والتمسه منه، فلا بأس، ولا ينبغي أن يقطعَ على الشَّيخ كلامه ولا يسابقه فيه، بل يصبر حتَّى يفرغ الشَّيخ مِن كلامه ثم يتكلَّم، ولا يتحدَّث مع غيره والشَّيخ يتحدَّث معه أو مع جماعة المجلس"(١).

٦- الأدب في سؤال الشَّيخ: قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومتى أَشكَلَ شيءٌ مِنَ الحديثِ على الطَّالب صَبرَ حتَّى ينتهي الحديث، ثمَّ يستفهمُ الشَّيخَ بأدبٍ ولُطفٍ ولا يقطع عليه في وسطِ الحديث"(٢).

٧- أن يشكر الطَّالب شيخه: قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وعلى المتعلِّم أن يعرف حُرمة أُستاذه ويشكر إحسانه إليه؛ فإنَّه مَن لا يَشكر النَّاس لا يَشكر الله، ولا يجحد حقَّه ولا يُنكر معروفه"(٣).

٨- النَّظافة والتَّجمُّل: قال النَّووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد استحبَّ العلماء لطالب العلم أن يُحسِّنَ حاله في حال مجالسة شيخه، فيكون متطهِّرًا متنظِّفًا بإزالة الشُّعور المأمور بإزالتها، وقصِّ الأظفار، وإزالة الرَّوائح الكريهة والملابس

(١) تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة، ص١٠٨.

(٢) الآداب الشرعية والمنح المرعية، لابن مفلح، (٢/ ١٧٠).

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ، (٢٨/ ١٣).

المكروهة، وغير ذلك، فإنَّ ذلك مِن إجلال العلم والعلماء"[(١)]. وغيرها مِنَ الآداب.

وقوله: (بِفِعْلٍ حَمِيدٍ وَقَوْلٍ سَلِيمْ): بفعل الخير وقول الكلام الجيِّد المؤدَّب، وقد ابتُلِيَت الأمَّة في هذا الزَّمان ببليَّة الوقيعة في أهل العلم، والتَّطاول عليهم، والطَّعن فيهم، والقدح في نواياهم، والتَّجرُّؤ عليهم، واتِّهامهم بما ليس فيهم، ونسبتهم إلى العمالة والخيانة، فمن وَقَعَ في مثل ذلك فلن يُفلح، قال ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "مَن استخفَّ بالعلماء ذهبت آخرته، ومَنِ استخفَّ بالأمراء ذهبت دنياه، ومَنِ استخفَّ بالإخوان ذهبت مروءته"[(٢)]، وعن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله: "لحوم العلماء مسمومة، مَن شمَّها مَرِض، ومَن أكلها مات"[(٣)].

وقال الحافظ ابن عساكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ناصحًا لإخوانه المسلمين، ومحذِّرًا مِنَ الطَّعن والتَّشكيك في العلماء العاملين، والأئمَّة المهتدين: "واعلم يا أخي وفَّقنا

---

(١) شرح صحيح مسلم، للنووي، (٤/ ٦٦).

(٢) سير أعلام النبلاء، للإمام الذهبي، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٥هـ، (٨/ ٤٠٨).

(٣) المعيد في أدب المفيد والمستفيد، عبد الباسط العلموي الدمشقي الشافعي، تحقيق: د. مروان العطية، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ١٤٢٤هـ، ص٦٠.

الله وإياك لمرضاته ممَّن يخشاه ويتقيه حقَّ تقاته: إنَّ لحوم العلماء رحمة الله عليهم مسمومة، وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة؛ لأنَّ الوقيعة فيهم بما هم منه براء أمره عظيم، والتَّناول لأعراضهم بالزُّور والافتراء مرتعٌ وخيمٌ، والاختلاق على مَن اختاره الله منهم لنعشِ العلم خُلُقٌ ذميم"[(١)]. وقال أيضًا: "كلُّ مَن أَطلقَ لسانه في العلماء بالثَّلب، بلاه الله عزَّ وجلَّ قبل موته بموت القلب"[(٢)].

فليحذر هؤلاء المتسلِّطون على العلماء والواقعون فيهم مِن سوء الخاتمة، وليتذكَّروا وقوفهم بين يدي الله تعالى للحساب.

(١) تبيين كذب المفتري فيما نسب إلىٰ الإمام أبي الحسن الأشعري، لابن عساكر، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٤هـ، ص٢٩.

(٢) تبيين كذب المفتري، لابن عساكر، ص٤٢٥.

(٥١/١٤) الوصيَّة بالعمل بالعلم

وَلَا بُـدَّ مِـنْ عَمَـلِ الصَّـالِحَاتِ فَعِلْـمٌ بِـلَا عَمَـلٍ كَـالْعَقِيمْ

وفي هذا البيت يوصي النَّاظم بأنَّ العلم يجب أن يكون مقرونًا بالعمل الصَّالح؛ إذ أنَّ العلم النَّافع هو الذي يوجِّه العمل ليكون صالحًا خالصًا لله تعالى وموافقًا للسُّنَّة، يقول علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "هتف العلم بالعمل، فإن أجابه، وإلَّا ارتحل"(١).

وقوله: (وَلَا بُدَّ مِنْ عَمَلِ الصَّالِحَاتِ): لأنَّ الأعمال الصَّالحة تُسعد العبد في الدُّنيا، وتؤنسه في قبره، فكُلَّما أكثَرَ مِنَ الأعمال الصَّالحة كالصَّلاة والصِّيام والصَّدقة والدُّعاء وقراءة القرآن الكريم وطلب العِلم والدَّعوة إلى الله تعالى، كان ذلك نافعًا له في الآخرة.

وقوله: (فَعِلْمٌ بِلَا عَمَلٍ كَالْعَقِيمْ): فالعمل هو ثمرة العلم وغايته، ويحفظ العلم ويُعين الطَّالب على تذكُّره وتدبُّره، وإن لم يكن العلم مقرونًا بالعمل فإنَّه يؤدِّي إلى نسيانه، ويكون عقيمًا كالشَّجرة التي لا تُثمر أو الأرض التي لا تُنتِج، ويُصبحُ وبالًا على صاحبه.

---

(١) اقتضاء العلم العمل، للخطيب البغدادي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، ط٤، ١٣٩٧هـ، ص٣٥.

وقد ذمَّ الله تعالى اليهود الذين علِموا ولم يعملوا، وجعل حظَّ مَن لم يعمل بعلمه كحظِّ الحمار مِنَ الكُتب التي أثقلت ظهره، فقال ﷻ: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(١)، وقال تعالى في ذمِّ ترك العمل بالعلم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾(٢)، وقال الله تعالى لقومٍ خالفت أفعالهم أقوالهم: ﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾(٣)، وأخبر النَّبيُّ ﷺ أنَّ كل واحدٍ سيُسأل عن علمه وماذا عمل فيه فقال: "لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ"(٤)؛ ولهذا قال النَّبيُّ شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿ وَمَآ

---

(١) سورة الجمعة: ٥.

(٢) سورة الصف: ٢-٣.

(٣) سورة البقرة: ٤٤.

(٤) رواه الترمذي ح٢٤١٧، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي ح٢٤١٧.

أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[1].

وقد ورد عن السَّلف أقوال كثيرة في عمل طالب العلم بعلمه ونشره، مَا يثير الهمَّة عنده للاعتناء الشَّديد بالعمل، وألَّف الإمام الحافظ الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب كتابه العظيم (اقتضاء العلم العمل) وأورد فيه الأدلَّة مِنَ الكتاب والسُّنَّة وأقوال أهل العلم في ذلك.

وممَّا ورد عن السَّلف في ذلك الكتاب[2] في هذه الوصيَّة التي أوصى بها النَّاظم: قول علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: "هَتَفَ العلمُ بالعمل، فإن أجابه، وإلَّا ارتحل"، وعن ابن شوذب، عن مطر، قال: "خير العلم مَا نفع، وإنَّما ينفع الله بالعلم مَن علمه ثمَّ عَمِلَ به، ولا ينفع به مَن علمه ثمَّ تركه"، وعن أبي عبد الله الروذباري قال: "مَن خرج إلى العلم يريد العلمَ لم ينفعه العلم، ومَن خرج إلى العلم يريد العمل بالعلم نفعه قليل العلم"، وقال الفضيل: "إنَّما يُراد مِنَ العلم العمل، والعلم دليل العمل"، وغيرها.

---

(١) سورة هود: ٨٨.

(٢) اقتضاء العلم العمل، للبغدادي، ص٣١-٣٧.

وقد كان الأئمَّة يعملون بعلمهم، ومنه قول الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "مَا كتبتُ حديثًا عن النَّبيِّ ﷺ إلَّا وقد عملتُ به، حتَّى مَرَّ بي في الحديث أنَّ النَّبيَّ ﷺ "احتجمَ وأعطى أبا طيبة دينارًا"، فأعطيتُ الحَجَّام دينارًا حين احتجمتُ"(١)، وقال عبد الرَّحمن بن مهدي: سمعت سفيان يقول: "مَا بلغني عن رسول الله ﷺ حديثٌ قطُّ، إلَّا عملتُ به ولو مرَّةً"(٢). وقال الخطيب البغدادي: أنشدنا محمد بن أبي علي الأصبهاني لبعضهم:

اعْمَلْ بِعِلْمِكَ تَغْنَمْ أَيُّهَا الرَّجُلُ ... لَا يَنْفَعُ الْعِلْمُ إِنْ لَمْ يَحْسُنِ الْعَمَلُ
وَالْعِلْمُ زَيْنٌ وَتَقْوَى اللَّهِ زِينَتُهُ ... وَالْمُتَّقُونَ لَهُمْ فِي عِلْمِهِمْ شُغُلُ
وَحُجَّةُ اللَّهِ يَا ذَا الْعِلْمِ بَالِغَةٌ ... لَا الْمَكْرُ يَنْفَعُ فِيهَا لَا وَلَا الْحِيَلُ
تَعَلَّمِ الْعِلْمَ وَاعْمَلْ مَا اسْتَطَعْتَ بِهِ ... لَا يُلْهِيَنَّكَ عَنْهُ اللَّهْوُ وَالْجَدَلُ
وَعَلِّمِ النَّاسَ وَاقْصِدْ نَفْعَهُمْ أَبَدًا ... إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ يَعْتَادَكَ الْمَلَلُ
وَعِظْ أَخَاكَ بِرِفْقٍ عِنْدَ زَلَّتِهِ ... فَالْعِلْمُ يَعْطِفُ مَنْ يَعْتَادُهُ الزَّلَلُ(٣)

(١) الآداب الشَّرعية، لابن مفلح، (٢/ ١٢).

(٢) سير أعلام النبلاء، للذهبي، (٧/ ٢٤٢).

(٣) اقتضاء العلم العمل، للبغدادي، ص٣٧.

(٥١/١٥) الوصيَّة بالأدب والسُّلوك الجميل مع النَّاس

وَكُنْ ذَا سُلُوكٍ جَمِيلٍ وَسَمْتٍ وَقَوْلٍ رَقِيقٍ وَخُلُقٍ كَرِيمْ

إنَّ أعظم مَا يُزيِّن طالب العلم، ويرفع منزلته عند الله ثمَّ عند النَّاس، حُسن الأدب وجميل السُّلوك، فإنَّ العلم ليس حفظًا للمسائل، ولا كثرةً في المعلومات، وإنَّما هو نورٌ يظهر أثره على صاحبه في أخلاقه، وتواضعه، ورحمته، وحلمه، وحُسن معاملته للنَّاس، وكلَّما ازداد أدبًا وخشيةً لله تعالى، وقد أمر الله تعالى بحُسن الكلام مع جميع النَّاس فقال: ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا ﴾[1]، وقال سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[2].

وإنَّ طالبَ العلم يحتاج إلى الأخلاق الفاضلة والسُّلوك الحسن أكثرَ مِن غيره؛ لأنَّه يحملُ علم الشَّريعة، ويمثِّلها أمام النَّاس، وحتَّى يزكو علمه وينمو، وينفع به نفسه وغيره، وتكون دعوته أبلغ تأثيرًا، وأمَّا إذا كان سيِّء الخُلُق، غليظ الطَّبع، نَفَرَ النَّاس منه، وربما صدَّهم عن الحقِّ وهو لا يشعر. وقد قال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والواجبُ أن يكون طلبةُ الحديث أكملَ النَّاسِ أدبًا، وأشدَّ الخَلْقِ تواضعًا، وأعظمَهُم نزاهةً وتديُّنًا، وأقلَّهُم طَيْشًا وَغَضَبًا؛ لدوامِ

---

(١) سورة البقرة: ٨٣.

(٢) سورة الحجر: ٨٨.

قَرعِ أسماعِهِم بالأخبار المشتملة على محاسنِ أخلاق رسول الله ﷺ وآدابِهِ، وسيرةِ السَّلفِ الأخيار مِن أهل بيتِهِ وأصحابِهِ، وطرائقِ المُحدِّثينَ، ومَآثرِ الماضينَ، فيأخذوا بأجمَلِهَا وأحسَنِهَا، وَيَصْدِفُوا عَنْ أَرْذَلِهَا وَأَدْوَنِهَا"[1].

(١) الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السَّامع، للخطيب، (١/ ٧٨).

(٥١/١٦) الوصيَّة بحُسن السَّمت

وَكُـنْ ذَا سُـلُوكٍ جَمِيـلٍ وَسَمْـتٍ وَقَــوْلٍ رَقِيــقٍ وَخُلُــقٍ كَــرِيمْ

قوله: (وَكُنْ ذَا ... سَمْتٍ): وهو "حُسن المظهر الخارجي للإنسان مِن طريقة الحديث والصَّمت، والحركة والسُّكون، والدُّخول والخروج، والسِّيرة العمليَّة في النَّاس، بحيث يستطيعُ مَن يراه أو يسمعه أن ينسبه لأهل الخير والصَّلاح والدِّيانة والفلاح"(١). وهو عنوان الوقار، وزينة العالِم، ودليل على مَا يحمله القلب مِن خشية الله وتعظيمه.

وحُسنُ السَّمت أثرٌ لِحُسنِ الخُلُق يظهرُ على الوجه، واللِّسان، والمشية، وسائر الأحوال، وليس تكلُّفًا في الهيئة؛ ولهذا كان العلماء يتحلَّون بهذا الخُلق الكريم، وكانَ الطُّلَّاب يتعلَّمون منهم ذلك، قال ابن مفلح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "كان يجتمعُ في مجلس أحمدَ زُهَاءُ على خمسةِ آلافٍ، أو يزيدون، أقلُّ مِن خمسمائةٍ يكتبون، والباقي يتعلمون منه حُسنَ الأدب وحُسنَ السَّمت"(٢)، وقال إبراهيم

---

(١) نضرة النَّعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، تأليف: عدد من المختصين بإشراف الشيخ صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، ط٤، (٥/ ١٥٨٨).

(٢) الآداب الشَّرعية، لابن مفلح، (٢/ ١٢).

النَّخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "كانوا إذا أتوا الرَّجُل يأخذون عنه العلم، نظروا إلى صلاته، وإلى سمته، وإلى هيئته، ثم يأخذون عنه"(١).

وقد أثنى الله تعالى على أهل الإيمان بما يظهر عليهم مِن آثار الطَّاعة والخشوع، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾(٢)، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واصفًا مشيهم في الأرض بسكينةٍ وتواضع ووقار: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾(٣).

وهكذا ينبغي أن يكون طُلَّاب العلم في زماننا هذا، وقد قال أبو حاتم بن حبَّان البستي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الواجبُ على العاقل أن يكون حَسَنَ السَّمت، طويل الصَّمت؛ فإنَّ ذلك مِن أخلاق الأنبياء، كما أنَّ سوء السَّمت وترك الصَّمت مِن شِيَمِ الأشقياء"(٤).

---

(١) سنن الدَّارمي، للإمام الدارمي، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٢هـ، (١/ ٣٩٨).

(٢) سورة الفتح: ٢٩.

(٣) سورة الفرقان: ٦٣.

(٤) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، لابن حبَّان، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٢٥.

وحُسنُ السَّمت له فوائد كثيرة، منها[1]: أنَّه مِن أخلاق الأنبياء والصَّالحين، ودليل كمال الإيمان ورجاحة العقل، ويكسب المرء احترام الآخرين وحبَّهم، ويكسب المرء الهيبة والوقار، ويدلُّ في كثير مِنَ الأحيان على صفاء القلب ونقاء السَّريرة.

(١) نضرة النَّعيم، لعدد من المؤلفين، (٥/ ١٥٩٥).

(٥١/١٧) الوصيَّة بالتزام الرِّفق في القول

وَكُـنْ ذَا سُـلُوكٍ جَمِيـلٍ وَسَمْـتٍ وَقَــوْلٍ رَقِيــقٍ وَخُلُــقٍ كَــرِيمْ

وهنا يوصي شيخنا – حفظه الله – طالب العلم بالتزام الرِّفق في القول فقال: (وَكُنْ ذَا ... قَوْلٍ رَقِيقٍ)؛ فيختار الألفاظ الحسنة، والعبارات اللَّطيفة، ويخفض الصَّوت، ويبتعد عن الصُّراخ والفظاظة؛ لأنَّ الكلمة الطَّيِّبة تفتح القلوب، وتؤلِّف النُّفوس، وتُعين على قبول الحقِّ. وأمَّا الغلظة والفظاظة فإنَّها تُنفِّر النَّاس، وتحجبهم عن الانتفاع بالعلم.

وقد أمر الله تعالى نبيَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بالرِّفق ولين الجانب فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[2]، بل أَمَرَ الله تعالى موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أن يرفقا في خطاب فرعون، مع شدَّة طغيانه، فقال: ﴿ ٱذْهَبَآ

(١) سورة آل عمران: ١٥٩.

(٢) سورة النحل ١٢٥.

﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾[1]، فإذا كان هذا مع فرعون، فمن باب أولى أن يكون الرِّفق مع المسلمين.

فعلى طالبِ العلم أن يحرص على لين القول تقرُّبًا إلى الله تعالى، ويعلِّم النَّاس بكلِّ رفقٍ وبكلِّ أسلوب جميلٍ، وبكلِّ لطافةٍ في الأسلوب، وجمالٍ في الكلام والتَّعبير، فذلك أدعى لقبول قوله مِن دعوة النَّاس إلى الله وتأليف قلوبهم، وقد جاء التَّرغيب في لين القول وعدم إغلاظه، ومِن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾[2]، وقوله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾[3].

❋❋❋

(١) سورة طه: ٤٣-٤٤.

(٢) سورة البقرة: ٨٣.

(٣) سورة الإسراء: ٥٣.

(٥١/١٨) الوصيَّة بالتَّأدُّب مع النَّاس في كلِّ حال

تَـأَدَّبْ مَـعَ النَّـاسِ فِي كُـلِّ حَـالٍ وَرِقَّ بِطَبْعِـكَ كُـنْ كَالنَّسِـيمْ

فطالب العلم يتَأَدَّبْ مَعَ النَّاسِ فِي كُلِّ حَال؛ في حضوره وغيابه، وفي رضاه وغضبه، ومع الموافق والمخالف، ومع الكبير والصَّغير، والغني والفقير؛ لأنَّ الأدب ليس خُلُقًا يلبسه الإنسان عند الحاجة، بل هو عبادة يتقرَّب بها إلى الله تعالى، وسجيَّة يظهر أثرها في جميع تصرُّفاته.

وقد أَمَرَ الله تعالى بحُسن معاملة النَّاس فقال: ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾[1]، وهذا أمرٌ عام يشمل جميع النَّاس، كلٌّ بحسب مَا يستحقُّه مِنَ المعاملة المشروعة. وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2]، وقال: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[3]، وكان النَّبيُّ ﷺ أكمل النَّاس أدبًا وأحسنهم

(١) سورة البقرة: ٨٣.

(٢) سورة الحجر: ٨٨.

(٣) سورة فصلت: ٣٤.

خُلُقًا، حتى قالت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: "فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ الْقُرْآنَ"(١).

وطالبُ العلم أحوج النَّاس إلى هذا الأدب؛ لأنَّ النَّاس ينظرون إلى سلوكه قبل أن يسمعوا كلامه، فإن رأوه متواضعًا، ليِّنًا، بشوشًا، صبورًا، أحبُّوا علمه وانتفعوا به، وإن رأوه سيِّء الخُلُق، غليظ الطَّبع، نفروا منه ومِن علمه، وربما كان سببًا في صدِّهم عن الحقِّ.

ومِنَ التَّأدُّب مع النَّاس في كلِّ حال: أن يبتسم في وجوههم، وأن يحفظ لسانه عن الغيبة والوقيعة والسَّبِّ والشَّتم، وأن يرفق في نصحه، ويلين في خطابه، وأن يُحسن الظَّنَّ بإخوانه، ويلتمس لهم الأعذار، وأن يصبر على أذاهم، ويُقابل الإساءة بالإحسان مَا استطاع، وأن ينزل النَّاس منازلهم، فيوقِّر الكبير، ويرحم الصَّغير، ويحترم أهل الفضل منهم، ويتحلَّى بالتَّواضع، وحُسن الاستماع لهم، والرِّفق واللِّين، والأمانة والصَّبر، ويطهِّر قلبه مِنَ الرِّياء والغلِّ والحسد وغيره، ويتجنَّب الخصام والمراء، وغير ذلك.

---

(١) رواه مسلم ح٧٤٦.

وإذا كان طالب العلم مأمورًا بالأدب مع عامَّة النَّاس، فهو مع والديه، ومشايخه، وإخوانه، وطلَّابه، وجيرانه، أشدُّ تأكُّدًا؛ لأنَّ حُسن الأدب معهم مِن شُكر الإحسان، ومِن أسباب بركة العلم وزيادة الانتفاع به.

فليجعل طالب العلم حُسن الخُلق شعارًا له في كلِّ أحواله، وليتذكَّر أنَّ الأدب زينة العلم، وأنَّ الخُلق الحسن مِن أثقل مَا يُوضع في ميزان العبد يوم القيامة كما قال النَّبيُّ ﷺ: "مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ"(١).

(١) رواه أبو داود ح٤٧٩٩؛ وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم ٤٧٩٩.

(٥١/١٩) الوصيَّة برقَّة الطَّبع

تَـأَدَّبْ مَـعَ النَّـاسِ فِي كُـلِّ حَـالٍ وَرِقَّ بِطَبْعِـكَ كُـنْ كَالنَّسِـيمْ

وهنا يوصي النَّاظم طالب العلم بأن يكون طبعه لطيفًا ورقيقًا؛ فإنَّ العلم النَّافع يورث صاحبه الرَّحمة، ويُهذِّب أخلاقه، ويكسبه لِينًا في المعاملة، ورفقًا في التَّعامل مع الخَلق. وأمَّا قسوة القلب وغلظة الطَّبع فإنَّهما يحولان بين العبد وبين الانتفاع بعلمه، ويصدَّان النَّاس عن قبول دعوته.

وقد وصف الله تعالى نبيَّه محمَّدًا ﷺ بالرَّأفة والرَّحمة فقال ﷻ: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ

(١) سورة التوبة: ١٢٨.

ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[1]، وفي الحديث عَن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: "لَا تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ"[2].

ورقَّة الطَّبع ليست ضعفًا في الشَّخصيَّة، ولا تنازلاً عن الحقِّ، وإنَّما هي لينٌ في المعاملة، ورحمة بالخَلق، وحُسنٌ في الأسلوب، مع الثَّبات على الحقِّ وعدم المداهنة فيه، وقد شبَّه النَّاظم رِقَّة طبع طالب العلم بالنَّسيم، وذلك للأسباب الآتية:

١- النَّسيم ليِّن ورقيق، فلا يجرح ولا يؤذي، وكذلك طالب العلم ينبغي أن يكون ليِّنًا رقيقًا في تعامله مع النَّاس.

٢- النَّسيم ينتشر في كلِّ مكان ويعمَّ الجميع، وكذلك رِقَّة الطَّبع واللِّين ينبغي أن يعمَّ تعامل طالب العلم مع النَّاس جميعًا.

٣- النَّسيم خالٍ مِنَ الشِّدَّة والعنف، وكذلك طالب العلم ينبغي أن يخلو طبعه مِنَ الشِّدَّة والغلظة.

(١) سورة آل عمران: ١٥٩.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد ح٣٧٤؛ وحسَّنه الألباني في صحيح الأدب المفرد برقم ٣٧٤.

(٥١/٢٠) الوصيَّة بالسَّكينة والوقار

وَكُـنْ ذَا وَقَـارٍ خَفِيـفَ المِـزَاحِ عَفِيـفَ اللِّسَـانِ بِوَجْـهٍ بَسِـيمْ

أي وكن يا طالب العلم ذا سكينةٍ ووقارٍ؛ فإنَّهما زينة العَالِم، وعنوان أهل العلم، ودليل على رسوخ الإيمان وكمال العقل. فالسَّكينة طمأنينة القلب وثباته، والوقار هو الرَّزانة والهيبة والاتِّزان في الأقوال والأفعال، وهما مِن أعظم مَا يُورث القبول بين النَّاس، ويزيد طالب العلم مهابةً واحترامًا.

وعلى طالب العلم لزوم السَّكينة والوقار، وذلك بخفض الصَّوت، وحُسن الإنصات، وضبط النَّفس عند الغضب، واجتناب الكبر والخيلاء، والتَّرفُّع عن اللَّهو وسفساف الأمور، والمزاح العابث، والاشتغال بما لا فائدة فيه: كالاشتغال بتوافه الأمور، والسَّمر، والتَّشجيع الرِّياضي، والتَّعصُّب القبلي، ونحوها، قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "تعلَّموا العلمَ وعلِّموهُ النَّاس، وتعلَّموا الوقارَ والسَّكينةَ، وتواضعوا لِمَن تعلَّمتم منه العلم، وتواضعوا لِمَن تُعلِّموهُ العلمَ، ولا تكونوا جبابرةَ العلماء فلا يقومُ عِلْمُكُمْ بِجَهْلِكُمْ"[1]، وقال الإمام مالك

(١) شعب الإيمان، للبيهقي، تحقيق: د. عبد العلي عبد الحميد حامد، إشراف: مختار أحمد الندوي، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، ط١، ١٤٢٣هـ، (٣/ ٢٨١).

رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وَحُقَّ على من طلب العلم أن يكون له وَقَارٌ وَسَكِينَةٌ وَخَشْيَةٌ، وَالعِلمُ حَسَنٌ لِمَنْ رُزِقَ خَيرَهُ"(١)، وقال الشَّعبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يا طلَّاب العلم، لا تطلبوا العلمَ بسفاهةٍ وطيشٍ، اطلبوه بسكينةٍ ووقارٍ وتؤدة"(٢).

(١) حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصبهاني، (٦/ ٣٢٠).

(٢) روضة العقلاء، لابن حبان، ص٣٤.

(٥١/٢١) الوصيَّة بخفَّة المزاح

وَكُـنْ ذَا وَقَـارٍ خَفِيـفَ المِـزَاحِ عَفِيـفَ اللِّسَـانِ بِوَجْـهٍ بَسِـيمْ

وهنا يوصي شيخنا – حفظه الله – طالب العلم بالاعتدال في المزاح، وأن يكون مزاحه خفيفًا، قليلاً، صادقًا، بعيدًا عن الإسراف؛ لأنَّ كثرة المزاح تُذهب الهيبة، وتُقسي القلب، وتُشغل عن الجد، وأمَّا المزاح اليسير الذي لا يتضمَّن كذبًا ولا أذى، وفي حدود الأدب والخير بعيدًا عن السَّخافة والسُّخرية أو مَا يجلبُ الشَّرَّ، وإنَّما يُقصد به إدخال السُّرور، وتأليف القلوب، وتعليم النَّاس مكارم الأخلاق، فلا بأس به، وقد يكون مِن هدي النَّبيِّ ﷺ، فَعَن أَبِي هُرَيرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّك تُدَاعِبُنا. قَالَ: "إِنِّي لا أَقُولُ إِلا حَقًّا"(١).

ولكنَّ الإكثار منه مذمومٌ لطالب العلم؛ لأنَّه يورثُ قسوة القلب، ويُضعِفُ الحفظ، ويُسقط الوقار، ويُشغِل عن العلم، ويقلِّل المروءة، قال الإمام النَّووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "قال العلماء: المزاحُ المنهيُّ عنه، هو الذي فيه إفراط ويُداوم عليه، فإنَّه يُورثُ الضَّحكَ وقسوةَ القلب، ويُشغلُ عن ذكر الله تعالى والفكر في مُهمَّات الدِّين، ويؤولُ في كثيرٍ مِنَ الأوقات إلى الإيذاء، ويُورثُ الأحقادَ، ويُسقطُ المهابةَ والوقارَ. فأمَّا مَا سَلِمَ مِن هذه الأمور فهو المباحُ الذي كان

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ح٢٦٥؛ وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد برقم ٢٦٥.

رسولُ الله ﷺ يفعله، فإنَّه ﷺ إنَّما كان يفعله في نادرٍ مِنَ الأحوال لمصلحة وتطييب نفس المخاطب ومؤانسته، وهذا لا منعَ قطعًا، بل هو سُنَّةٌ مُستحبَّةٌ إذا كان بهذه الصِّفة"(١).

يقول عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "مَنْ كَثُرَ ضَحِكُهُ قَلَّتْ هَيْبَتُهُ، مَنْ مَزَحَ اسْتُخِفَّ بِهِ، وَمَنْ أَكْثَرَ مِنْ شَيْءٍ عُرِفَ بِهِ، وَمَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ، وَمَنْ كَثُرَ سَقَطُهُ قَلَّ حَيَاؤُهُ، وَمَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ، وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ مَاتَ قَلْبُهُ"(٢)، ويقول سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ لِابْنِهِ: "اقْتَصِدْ فِي مِزَاحِك فَإِنَّ الْإِفْرَاطَ فِيهِ يُذْهِبُ الْبَهَاءَ، وَيُجَرِّئُ عَلَيْك السُّفَهَاءَ، وَإِنَّ التَّقْصِيرَ فِيهِ يَفُضُّ عَنْك الْمُؤَانِسِينَ، وَيُوحِشُ مِنْك الْمُصَاحِبِينَ"(٣).

(١) الأذكار، للإمام النووي، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤١٤هـ، ص٣٢٦.

(٢) المعجم الأوسط، للطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله وعبد المحسن الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، (٢/ ٣٧٠).

(٣) أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن الماوردي، دار مكتبة الحياة، ١٩٨٦م، ص٣١١.

(٥١/٢٢) الوصيَّة بعفَّة اللِّسان

وَكُـنْ ذَا وَقَـارٍ خَفِيـفَ المِـزَاحِ عَفِيـفَ اللِّسَـانِ بِوَجْـهٍ بَسِـيمْ

وهنا يوصي شيخنا – حفظه الله – طالب العلم بأن يتحلَّى بعفَّة اللِّسان؛ لأنَّ اللِّسان ترجمان القلب، وعنوان صاحبه، وبه ترتفع الدَّرجات أو تهوي بصاحبه في الدَّركات. وقد أَمَرَ الله تعالى بحفظ اللِّسان، وأنَّ كل كلمة يقولها العبد مكتوبة عليه، وسيُسأل عنها يوم القيامة، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾[2]، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، ومَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ"[3].

---

(١) سورة ق: ١٨.

(٢) سورة الأحزاب: ٧٠-٧١.

(٣) رواه البخاري ح٦٠١٨.

وعلى طالب العلم وكل مسلم أن يضبط لسانه مِنَ الوقوع في الآفات كالغيبة والنَّميمة، والكذب والزُّور، والسُّخرية والهزل، والسَّبِّ والشَّتم، والوقيعة في أعراض العلماء والنَّاس، أو يقول مَا لا عِلمَ له به، وكلُّ مَا هو مذموم، ويكون مشغولاً بالخير والذِّكر والتِّلاوة والأمر بالمعروف؛ وقد جاء في الحديث عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ"(١).

وهكذا كان السَّلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ كانوا شديدي العناية بحفظ ألسنتهم، قَالَ عَبْدُاللَّهِ بنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: "وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا عَلَى الْأَرْضِ شَيْءٌ أَحْوَجُ إِلَى طُولِ سَجْنٍ مِنْ لِسَانٍ"(٢).

قال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "مَا اغتبتُ أحدًا قط منذ علمتُ أنَّ الغيبةَ حرام"(٣)، وقال الذَّهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وعن بعضهم، قال: صَحِبتُ الرَّبيعَ عشرينَ

---

(١) رواه البخاري ح٦٤٧٤.

(٢) الأدب لابن أبي شيبة، لابن أبي شيبة، تحقيق: د. محمد رضا القهوجي، دار البشائر الإسلامية، لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ، ص٢٤٥.

(٣) فتح الباري، لابن حجر، (١/ ٤٨٠).

عامًا مَا سمعتُ منه كلمةً تُعابُ"[1]، وعن يحيى القطَّان رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: "مَا سَادَ ابن عَونٍ النَّاسَ أنْ كانَ أَتْرَكَهُمْ للدُّنيا، ولكن إنَّمَا سَادَ ابنُ عَوْنٍ النَّاس بحفظِ لسانهِ"[2].

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبي، (٤/ ٢٥٩).

(٢) حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصبهاني، (٣/ ٣٧).

(٥١/٢٣) الوصيَّة بطلاقة الوجه

وَكُـنْ ذَا وَقَـارٍ خَفِيـفَ المِـزَاحِ عَفِيـفَ اللِّسَـانِ بِوَجْـهٍ بَسِـيمْ

وهكذا ينبغي لطالب العلم أن يكونَ طَلِقَ الوجه يُقابل النَّاس بالبشاشة والابتسامة، والانبساط وطيب الكلام دون تكلُّف؛ لأنَّه بذلك يقتربُ النَّاس منه ويألفونه ويُحادثونه ويُحبُّونه، وهي مِن علامات سلامة الصَّدر، ولِين القلب، وحُسن المعاملة. وأمَّا الوجه العبوس فلا يألف النَّاس صاحبه ولا يُقبلون عليه وينفرون منه، وقد يتَّهمونه بالكِبر؛ ولهذا جاء في الحديث عَنْ جَرِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "مَا حَجَبَنِي النَّبِيُّ ﷺ مُنْذُ أَسْلَمْتُ، وَلاَ رَآنِي إِلَّا تَبَسَّمَ فِي وَجْهِي"(١)، وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِيَ النَّبِيُّ ﷺ: "لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ"(٢)، وهذا يدلُّ على أنَّ التَّبسُّم وطلاقة الوجه كانا مِن هديه الدَّائم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مع أصحابه.

قال ابن حبَّان رَحِمَهُ اللَّهُ: "البشاشةُ إدام العلماء، وسجيَّة الحكماء؛ لأنَّ البِشْر يطفئ نار المُعاندة، ويُحرقُ هيجان المباغضة، وفيه تحصينٌ مِنَ الباغي،

---

(١) رواه البخاري ح٣٠٣٥؛ ومسلم ح٢٤٧٥.

(٢) رواه مسلم ح٢٦٢٦.

ومنجاة مِنَ السَّاعي"[1]. فالابتسامة الصَّادقة تُذهب الوحشة، وتزرع المحبَّة، وتفتح القلوب لقبول العلم والدَّعوة، وهي لا تُنقص مِن وقار صاحبها، بل تُزيده محبَّةً وقبولاً إذا اقترنت بالسَّكينة والوقار.

(١) روضة العقلاء، لابن حبان، ص٧٥.

(٥١/٢٤) الوصيَّة بأن يكون سلفيًا على الجادَّة

وَكُــنْ سَــلَفِيًّا بِعَقْــدٍ صَــحِيحٍ عَــلَى مَسْــلَكِ السَّــالِفِينَ السَّلِــيمْ

وهنا يوصي شيخنا – حفظه الله – طالب العلم بأن يحرص على متابعة منهج السَّلف الصَّالح مِنَ الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فمَن بعدهم ممَّن قَفَا أثرهم في العقيدة والتَّوحيد، والعبادة والسُّلوك، وطلب العلم والفقه، وفي جميع أبواب الدِّين؛ لأنَّ اعتقاد ومنهج السَّلف الصَّالح كسفينة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، مَن رَكِبَ وتمسَّك بها نجا، ومَن تركها هَلَك، فهو أسلم المناهج، وأصفاها، وأنقاها، وأحكمها، وهو الطَّريق المستقيم، والحقّ المبين، والجادَّة السَّليمة، والمحجَّة البيضاء التي تركنا عليها النَّبيُّ ﷺ. فمَن رامَ السَّعادة في الدُّنيا والآخرة فعليه التَّمسُّك بالكتاب والسُّنَّة بفهم سَلَفِ الأمَّة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "الذي يجبُ على الإنسان اعتقاده في ذلك وغيره مَا دلَّ عليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ واتَّفقَ عليه سَلَفُ المؤمنين الذين أثنى الله تعالى عليهم وعلى مَن اتَّبعهم وذمَّ مَن اتَّبع غير سبيلهم"(١).

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (١٢/ ٢٣٥).

وقوله: (كُنْ سَلَفِيًّا ... عَلَى مَسْلَكِ السَّالِفِينَ السَّلِيمْ): وذلك لقربهم مِن عهد الرِّسالة، وأَمْرُ النَّبي ﷺ لهم بتبليغ الدِّين، وسلامة مصادرهم في التَّلقِّي بتجرُّدٍ وإيمانٍ راسخ، وتسليم كامل للكتاب والسُّنَّة، وهم أطهر النَّاس سيرة، وأعمق عِلمًا، وأخلصهم قلوبًا؛ لذلك كان مِن شعار أهل السُّنَّة بيانَ عِظَم منزلة الصَّحابة والسَّلف الصَّالح عندهم حتَّى صاروا يذكرون ذلك مِن جملة عقائدهم، قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أصول السُّنَّة عندنا: التَّمسُّك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ, والاقتداء بهم, وترك البدع, وكلُّ بدعة فهي ضلالة, وترك الخصومات والجلوس مع أصحاب الأهواء, وترك المراء والجدال والخصومات في الدِّين"(١).

قال الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اصبر نفسك على السُّنَّة، وَقِفْ حيثُ وَقَفَ القوم، وَقُلْ بما قالوا، وَكُفَّ عمَّا كَفُّوا عنه، واسلُك سبيل سَلَفِكَ الصَّالح، فإنَّه يَسَعُكَ مَا وَسِعَهُم"(٢)؛ لذلك فإنَّ مَن تمسَّكَ بالكتاب والسُّنَّة على فهم السَّلف

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي، تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، دار طيبة، السعودية، ط٨، ١٤٢٣هـ، (١/ ١٧٥).

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي، (١/ ١٧٤).

الصَّالح يكون بعيدًا مِنَ التَّفرُّق والاختلاف وتضارب العقول والأهواء، ومَن خَالَفَ الأمر وَأَخَذَ غير طريقهم فقد ضَلَّ ضلالاً بعيدًا.

وقد أرشد النَّاظم إلى ذلك بقوله: (عَلَى مَسْلَكِ السَّالِفِينَ السَّلِيمْ) لِمَا في مسلكهم مِن الخير والهدى والاستقامة، قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "مَن كانَ منكم مُتأَسِّيًا فَليتَأَسَّ بأصحاب رسول الله ﷺ فإنَّهم كانوا أَبَرَّ هذه الأُمَّة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلّها تكلُّفًا، وأقومها هديًا، وأحسنها حالاً، اختارهم الله لِصُحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه، فَاعْرِفُوا لهم فضلَهُم، واتَّبِعوهُم في آثارهم، فإنَّهم كانوا على الهدى المستقيم"(١)، وقال حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "يَا مَعشرَ القُرَّاء، اسْتَقِيمُوا فقد سَبَقْتُمْ سَبْقًا بَعيدًا، فَإِنْ أَخَذْتُمْ يمينًا وَشمَالاً، لقد ضَلَلْتُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا"(٢).

فالواجب على كل مسلم أن ينتسب إلى السَّلف الصَّالح ويفهم الكتاب والسُّنَّة بفهمهم، ولا يخالف منهجهم، ويعتزَّ بانتسابه إليهم، قال ابن تيمية

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، (١/ ٦٠).

(٢) صحيح البخاري، للإمام البخاري، (٩/ ٩٣).

رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لا عَيبَ على مَن أظهرَ مذهب السَّلف وانتسب إليه واعتزى إليه، بل يجبُ قبول ذلك منه بالاتِّفاق، فإنَّ مذهبَ السَّلفِ لا يكونُ إلَّا حقًّا"(١).

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (٤/ ١٤٩).

(٥١/٢٥) الوصيَّة بالوسطيَّة والاعتدال

وَكُــنْ وَسَــطِيًّا وَلَا تَغْــلُ يَوْمًــا وَلَا تَجْفُ حَقًّا تُصِبْ فِي الصَّمِيمْ

ومِن الوصايا التي أوصى بها النَّاظم: أن يكون طالب العلم وسطيًّا، بعيدًا عن الغلوِّ والجفاء، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فدينُ الله بين الغالي فيه والجافي عنه، وخيرُ النَّاس النَّمط الأوسط، الذين ارتفعوا عن تقصير المفرِّطين، ولم يلحقوا بغلوِّ المعتدين، وقد جَعَلَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذه الأمَّة وسطًا، وهي الخيار العدل؛ لتوسُّطها بين الطَّرفين المذمومين، والعدل: هو الوسط بين طرفي الجور والتَّفريط، والآفات إنَّما تتطرَّق إلى الأطراف، والأوساط محميَّة بأطرافها، فخيارُ الأمور أوساطها"[(١)].

وامتدح الله تعالى أمَّة محمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنَّها الأمَّة الوسط فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، (١/ ١٨٢).

شَهِيدًا ﴾[1]، وقد ثَبَتَ عن النَّبيِّ ﷺ تفسير الوسط بأنَّه العدل، فقال: "وَالوَسَطُ العَدْلُ"[2].

وخيرُ النَّاس النَّمطُ الأوسط الذين هم ارتفعوا عن تقصير المقصِّرين المفرِّطين، ولم يلحقوا بغلوِّ المتجاوزين المعتدين، ولكنَّهم كانوا أهل توسُّط واعتدال، قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "عليكُم بالنَّمَطِ الأوسط، فإليه يَنْزِلُ العَالي، وإليه يَرْتَفِعُ النَّازِلَ"[3].

وقد جاء النَّهي في كتاب الله تعالى عن الإفراط والتَّفريط، والغلوِّ والجفاء، والأمر بالتَّوسُّط والاعتدال، ومِن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾[4]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾[5]، وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ

(١) سورة البقرة: ١٤٣.

(٢) رواه البخاري ح٣٣٣٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، (٢/ ١٥٤).

(٤) سورة الأعراف: ٣١.

(٥) سورة الإسراء: ٢٩.

﴿إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾[1]، وبوَّب البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيحه فقال: "باب مَا يُكره مِنَ التَّعمُّق والتَّنازع في العلم، والغلو في الدِّين والبدع؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾[2]"[3]، وفي الحديث قال النَّبيُّ ﷺ: "وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ بِالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ"[4]، وذكَرَ النَّبيُّ ﷺ عاقبة الغالين في الدِّين فقال ثلاثًا: "هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ"[5].

ومِنَ النَّماذج النَّبويَّة في النَّهي عن الغلوِّ والتَّشدُّد مَا جاء في الحديث عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ

---

(١) سورة الفرقان: ٦٧.

(٢) سورة النساء: ١٧١.

(٣) صحيح البخاري، للإمام البخاري، (٩/ ٩٧).

(٤) رواه أحمد ح١٨٥١، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته برقم ٢٦٨٠.

(٥) رواه مسلم ح٢٦٧٠.

النَّبِيِّ ﷺ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: "أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي"(١).

وتكمن خطورة هذا الغلو في اعتقاد أولئك الغُلاة بأنَّهم على الحقِّ، وأنَّ مَن خالفهم فهو على الباطل، وهذا انتكاسٌ في الفِكر والعقل، ويعمل على تفريق كلمة المسلمين وإضعاف شوكتهم، وقتل المسلمين وتكفيرهم.

وهناك أسبابًا لوجود الغلوِّ في بعض شباب المسلمين ومنها: قلَّة العلم الشَّرعي، وتلقِّيه عن صغار الأسنان ودعاة الفتنة والسُّوء، والتَّنطُّع والتَّشدُّد والخروج عن منهج الاعتدال في الدِّين، والخلل في بعض مناهج الدَّعوات المعاصرة التي تعتمد على الشَّحن العاطفي وتربية الأتباع على المخالفات والبدع وحشو أذهانِهم بأفكارٍ ومفاهيمَ منحرفة كالتَّكفير والتَّفجير والقتل.

---

(١) رواه البخاري ح٥٠٦٣.

والخلاصة أنَّ أهل السُّنَّة والجماعة هم الأمَّة الوسط بين أهل الإسلام، فهم وَسَطٌ بين أهل الغلوِّ والجفاء، وهم الطَّائفة المنصورة والفِرقة النَّاجية.

(٥١/٢٦) الوصيَّة باجتناب محدثات الأمور

وَجَـانِبْ بُـنَيْ مُحْـدَثَاتِ الْأُمُـورِ وَسُـــبُـلَ الغُوَاةِ وَخَطْوَ الرَّجِيمْ

قوله: (وَجَانِبْ: مُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ وَسُبُلَ الغُوَاةِ): يُحذِّر النَّاظم كلُّ المسلمين عامَّة وطُلَّاب العلم خاصَّة مِن اتِّباع الأمور المُحدثة المبتدعة ممَّا لا أصل له في الشَّريعة يدلُّ عليه، كما حذَّر مِن طُرُق الضَّالِّين والمُضلِّين الذين غيَّروا وبدَّلوا في الدِّين، وهو بهذا يُشير إلى حديث عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ"(١)، وحديث الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى بَعْدِي اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ"(٢).

فالواجب التَّمسُّك بالسُّنَّة والحذر مِنَ البدع واتِّباع خطوات الضَّلال والغواية، يقول الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ

---

(١) رواه البخاري ح٢٦٩٧.

(٢) رواه أحمد ح١٧١٤٤، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته برقم ٢٥٤٩.

فَٱنتَهُواْ ﴾[1]، يقول عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "إِيَّاكُمْ وَأَصْحَابَ الرَّأْيِ فَإِنَّهُمْ أَعْدَاءَ السُّنَنِ أَعْيَتْهُمُ الْأَحَادِيثُ أَنْ يَحْفَظُوهَا فَقَالُوا بِالرَّأْيِ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا"[2]، وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "اِتَّبِعُوا وَلَا تَبْتَدِعُوا فَقَدْ كُفِيتُمْ"[3]، وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: "قِفْ حيثُ وَقَفَ القوم، فإنَّهُم عن علمٍ وقفُوا، وَبِبَصَرٍ نافذٍ كَفُّوا، ولهم على كَشْفِهَا كانوا أقوى، وبالفضل لو كانَ فيها أحرى، فلئن قُلتم: حَدَثَ بعدَهُم، فما أحدثهُ إلَّا مَن خَالفَ هديهُم وَرَغِبَ عن سُنَّتِهم، ولقد وَصَفُوا منه مَا يَشفي، وتكلَّمُوا منه بما يكفي، فما فوقهم مُحسّر، ومَا دُونهم مُقصِّر. لقد قَصَّرَ عنهم قومٌ فجفوا، وتجاوزهم آخرون فغلوا، وإنَّهم فيما بين ذلك لعلى هدىً مستقيم"[4].

---

(١) سورة الحشر: ٧.

(٢) سنن الدارقطني، للدارقطني، حققه وضبط نصه وعلق عليه: شعيب الأرناؤوط، حسن عبد المنعم شلبي، عبد اللطيف حرز الله، أحمد برهوم، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ (٥/ ٢٥٦).

(٣) أصول السنة، ومعه رياض الجنة بتخريج أصول السنة، لابن أبي زَمَنِين المالكي، تحقيق وتخريج وتعليق: عبد الله بن محمد البخاري، الناشر: مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٥هـ، ص٥٦.

(٤) لمعة الاعتقاد، لابن قدامة، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ط٢، ١٤٢٠هـ، ص٨.

(٥١/٢٧) الوصيَّة باجتناب سُبُل الغوَاة وخطوات الشَّيطان

وَجَـانِبْ بُـنَيْ مُحْـدَثَاتِ الْأُمُـورِ وَسُـــبُـلَ الغُوَاةِ وَخَطْوَ الرَّجِيمْ

وقوله: (وَجَانِبْ بُنَيْ ... سُبُلَ الغُوَاةِ): وهنا يحذِّر شيخنا – حفظه الله – مِنَ الطُّرق والمناهج التي تُبعد طالب العلم عن الحقِّ، ومِن صُحبة أهل الأهواء والبدع، ومِنَ الشُّبهات والشَّهوات التي تُفسِد عليه علمه وقصده؛ فإنَّ طالب العلم أحوج مَا يكون إلى سلامة المنهج، وصِحَّة الاعتقاد، وإخلاص القصد، ولزوم السُّنَّة، والحذر مِنَ الاغترار بكثرة الأتباع أو زخرف الأقوال. يقول الله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1].

وقوله: (وَجَانِبْ بُنَيْ ... وَخَطْوَ الرَّجِيمْ): أي: اجتنب طُرق الشَّيطان المطرود وخطواته، واتِّباع وساوسه، يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن

---

(١) سورة الأنعام: ١٥٣.

(٢) سورة البقرة: ٢٠٨.

يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾[1]، وخطوات الشَّيطان نزغاته ومَا يدعو إليه مِن كُفرٍ أو بدعةٍ أو معصيةٍ لله تعالى.

وسمَّاها الله تعالى خطوات؛ لأنَّ الشَّيطان لا يوقعُ العبد في الشَّرِّ دفعةً واحدة، وإنَّما ينتقلُ به مِنَ الصَّغيرة إلى الكبيرة، ومِنَ التَّساهل إلى التَّهاون، ومِنَ البدع الصَّغيرة إلى البدع الكبيرة، حتى يُفسد عليه دينه إن لم يتداركه الله برحمته.

ولعلَّ النَّاظم – حفظه الله - ذكَرَ هذه الوصيَّة لطالب العلم لأهمِّيتها؛ لأنَّ الشَّيطان لا يرضى بطالب العلم، فهو يحمل نور الوحي، ويُعلِّم النَّاس الخير، ولذلك يجتهد في إفساد دينه، أو إضعاف همَّته، أو صرفه عن العلم، أو إفساد نيَّته، أو يوقعه في العُجب والرِّياء، أو في الغيبة والطَّعن في النَّاس، أو في الكسل عن العبادة، أو إيقاعه في المعاصي والبدع والشُّبهات والخصومات.

فالشَّيطان يحرص على إضلال أهل العلم، لأنَّ إضلال العَالِم إضلالٌ لأتباعه، وقد ذكَرَ الله تعالى خَبَرَ عالِمٍ آثَرَ هواه على طاعة الله فتمكَّن الشَّيطانُ منه واستولى عليه فكان مِن زمرة جنده، وكان مصدر إضلال وإغواء للعباد بعد أن كان مصدر هداية وإرشاد لهم، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ

(١) سورة النور: ٢١.

ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴾[1]؛ لذلك يجب على أهل العلم أن يكونوا أشدُّ حذرًا مِن شِراك الشَّيطان ومكائده، وليستعذ بالله تعالى منه كما أخبر بقوله: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[2].

فعلى طالب العلم أن يعلم أنَّ الشَّيطان لا يمل مِن إغوائه، فلا يغفل عن عداوته، وليراقب قلبه وعمله، وليغلق عليه أبوابه، وليُكثر مِن ذِكر الله تعالى؛ لأنَّ الذِّكر حصنٌ حصين، ومَن استعان بالله أعانه، ومَن توكَّل عليه كفاه.

(١) سورة الأعراف: ١٧٥.

(٢) سورة الأعراف: ٢٠٠.

(٥١/٢٨) الوصيَّة بالابتعاد عن فتنتي الشُّبُهات والشَّهوات

وَفِـرَّ مِـنَ الشُّبُهَـاتِ بَعِيـدًا ... فَـآثَـارُهَـا حَـيَّرَتْ بِـالْحَـلِـيمْ
وَلَا تَقْتَرِبْ مِنْ حِمَى الشَّهَوَاتِ ... فَـتُرْمَى بِـهَـا فِي أُتُـونِ الْجَـحِـيمْ

وهنا يوصي شيخنا - حفظه الله - بالابتعاد مِن فتنتي الشُّبهات والشَّهوات، وهي مِن الوصايا المهمَّة التي يحتاجها المسلم في هذا الزَّمن؛ لأنَّها أصل كلُّ انحراف، وهما الطَّريقان اللَّذان يُفسَد بهما الدِّين والقلب.

فالوصيَّة الأولى: الابتعاد عن فتنة الشُّبهات، فقال: (وَفِرَّ مِنَ الشُّبُهَاتِ): أي ابتعد يا طالب العلم مِنَ الأمور المشكوك فيها؛ لأنَّها قد تُوقِعُكَ في المخالفات، والمقصود بها: هي مَا يلبِّس على الإنسان دينه، فيختلط عليه الحق بالباطل، فتضعف بصيرته، وقد يظن الباطل حقًّا، فتُوقِعُ في الشِّرك بالله تعالى، وتُوقِعُ في البدع والخرافات؛ لذلك فإنَّ (آثَارُهَا حَيَّرَتْ بِالْحَلِيمْ)، وجعلت العاقل حيرانًا قد يضلُّ بسببها.

وقد جاء التَّحذير منها في الكتاب والسُّنَّة، ومِن ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ

﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[1]، قالت عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَلاَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الآيَةَ فَقال: "إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ"[2]؛ وذلك لأنَّ أهل الانحراف يتَّبعون المتشابه طلبًا للفتنة، وأمَّا أهل العلم هم أبعد النَّاس عن الشُّبهات؛ لأنَّهم يسيرون بنور الكتاب والسُّنَّة لا بظلمات الأهواء، فلا يتَّبعون الشُّبهات، وإنَّما شأنهم ردَّها، وكشف زيفها، وبيان الحقِّ للنَّاس.

وفي الحديث عَن النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "الحَلاَلُ بَيِّنٌ، وَالحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى المُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ: كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلاَ إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ"[3]، وهذا الحديث أصلٌ عظيم في التَّحذير مِنَ الشُّبهات؛ إذ بيَّن النَّبيُّ ﷺ أنَّ هناك أمورًا تلتبس على

---

(١) سورة آل عمران: ٧.

(٢) رواه البخاري ح٤٥٤٧؛ ومسلم ح٢٦٦٥.

(٣) رواه البخاري ح٥٢.

كثيرٍ مِنَ النَّاس، فمَن اتَّقاها فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومَن تجرَّأ عليها وقع في الحرام مِن حيثُ لا يشعر، فدلَّ ذلك على أنَّ السَّلامة في البُعد عن الشُّبهات، وأنَّ أهل الورع والعلم هم أبعد النَّاس عنها.

والوصيَّة الثَّانية: الابتعاد عن فتنة الشَّهوات، فقال: (وَلَا تَقْتَرِبْ مِنْ حِمَى الشَّهَوَاتِ) التي تُوقِعُكَ في المحرَّمات، وهي اتِّباع الهوى والرَّغبات المحرَّمة، مع علمه بالحقِّ لكنَّه يتركه لأجل لذَّةٍ عاجلة، (فَتُرْمَى بِهَا فِي أُتُونِ الْجَحِيمْ) وتؤدِّي بك إلى نار جهنَّم.

والنُّفوس مجبولة على حبِّ الشَّهوات، وتميل إليها وتأنس بها، لكنَّها إن تُرِكَت دون ضابطٍ أوردت صاحبها المهالك؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾[1]، فطريق الشَّهوات يؤدِّي إلى النَّار ففي الحديث عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ"[2].

---

(١) سورة آل عمران: ١٤.

(٢) رواه مسلم ح٢٨٢٢.

وفتنة الشَّهوات تكون في الملذَّات والشَّهوات والأهواء التي يحبُّها الإنسان وتميل إليها نفسه، وهي كثيرة ومنها: شهوة الفرج التي تُوقعُ في الزِّنا والاستمتاع المحرَّم، وشهوة البطن التي تُوقعُ في أكل المحرَّمات كأكل مال اليتيم وشرب الخمر وغيره، وشهوة المال التي تُوقعُ في الرِّبا والرِّشوة وغيره؛ لذلك ينبغي الفِرار وعدم الاقتراب منها.

وتلك الفتن لابد من دفعها، وقد بيَّن ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما تُدفعُ به تلك الفتن فقال: "ففتنة الشُّبهات تُدفع باليقين، وفتنة الشَّهوات تُدفع بالصَّبر؛ ولذلك جَعَلَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إمامة الدِّين منوطةٌ بهذين الأمرين، فقال: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[1]، فدلَّ على أنَّه بالصَّبر واليقين تُنالُ الإمامة في الدِّين، وَجَمَعَ بينهما أيضًا في قوله: ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾[2]، فتواصوا بالحقِّ الذى يدفع الشُّبهات، وبالصَّبر الذى يكفُّ عن الشَّهوات؛ ... فبكمال العقل والصَّبر تُدفع فتنة الشَّهوة، وبكمال البصيرة واليقين تُدفع فتنة الشُّبهة، والله المستعان"[3].

---

(١) سورة السجدة: ٢٤.

(٢) سورة العصر: ٣.

(٣) إغاثة اللَّهفان، لابن القيم، (٢/ ١٦٧).

وخلاصة القول بأنَّ التَّصدِّي لهذه الفتن يكون: بنشر العلم النَّافع وتعليمه للنَّاس وهو علم الكتاب والسُّنَّة والتَّمسُّك بهما؛ إذ أنَّ الباطل وشبهاته وشهواته لا ينتشر إلَّا إذا فُقِدَ العلم وَضَعُفَ الإيمان.

ويكون التَّصدِّي للفتن أيضًا: بعدم التَّعرُّض لها كما جاء في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "سَتَكُونُ فِتَنٌ القَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ القَائِمِ، وَالقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ المَاشِي، وَالمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، وَمَنْ يُشْرِفْ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ، وَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ"(١).

ومِن أسباب الوقاية والتَّصدِّي للفتن كثرة الدُّعاء والتَّضرُّع إلى الله تعالى بأن يعصمه منها، فقد جاء في حديث زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنَ الْفِتَنِ، مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ"(٢)، وكان مِن دعاء النَّبِيِّ ﷺ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ، وَإِذَا أَرَدْتَ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً، أَنْ تَقْبِضَنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ"(٣).

---

(١) رواه البخاري ح٣٦٠١.

(٢) رواه مسلم ح٢٨٦٧.

(٣) رواه أحمد ح٣٤٨٤، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته برقم ٥٩.

(٥١/٢٩) الوصيَّة بخلُقِ التَّواضع

تَوَاضَعْ تَكُنْ كَالنُّجُومِ رَفِيعًا ... فَإِنَّ التَّكَبُّرَ شَأْنُ الْعَظِيمْ

يوضِّح النَّاظم أهميَّة التَّواضع لطالب العلم؛ فهو يجعله قابلاً للتَّعلُّم، ومُدرِكًا لنقصان عِلْمِهِ مهما بَلَغ، ومُستَعِدًّا للرُّجوع إلى الحقِّ وقبول النُّصح مِنَ الآخرين، حتى وإن كانوا أصغر منه، ممَّا يرفع قدره، ويحفظ بركة عِلْمه، ويفتح له أبواب المزيد مِنَ الفهم، بعكس التَّكبُّر والغُرور الذي يمحو بركة العلم ويؤدِّي إلى الهلاك، وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: "مَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ"(١).

فالواجبُ على طالبِ العلمِ أن يتواضع مِن أجل التَّعلُّم، قال الشَّافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "لا يطلُبُ هذا العلمَ أَحَدٌ بالمُلكِ وعِزَّةِ النَّفسِ فيُفلِحَ، ولكن مَن طلبَه بِذِلَّةِ النَّفسِ، وضِيقِ العَيش، وخِدمةِ العِلم، وتَواضُعِ النَّفس أفلَح"(٢)، وقال عبد الله بن المعتز رَحِمَهُ اللَّهُ: "المتواضع في طلبِ العلم أكثرُهُم عِلمًا كما أنَّ المكانَ المنخفضَ أكثرُ البقاعِ ماءً"(٣).

---

(١) رواه مسلم ح٢٥٨٨.

(٢) مناقب الشافعي، للبيهقي، (٢/ ١٤١).

(٣) الآداب الشَّرعية، لابن مفلح، (٢/ ٢٥).

كما أنَّ الواجبَ على طالبِ العلمِ أن يتواضع مع أقرانه؛ وذلك لأنَّه كثيرًا مَا تشتعلُ المنافسةُ ويقع التَّحاسدُ بينهما، وربَّما يؤدِّي ذلك إلى نوعٍ مِنَ استعلاء بعضهم على بعض، ومحاولة الحطِّ مِن قدر قرينه والتَّنقُّص منه.

وواجبٌ عليه أيضًا أن يتواضع مع النَّاس جميعًا، ويُخالطهم، ويدعوهم إلى الخير، وإلى الأخلاق الحسنة، وكلَّما ازداد تواضعًا ازداد إيمانًا بالله تعالى وقُربًا منه، وهو بذلك يخضع للحقِّ ويقبله، وقد سُئِلَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عَنِ التَّوَاضُعِ، فَقَالَ: "يَخْضَعُ لِلْحَقِّ وَيَنْقَادُ لَهُ، وَيَقْبَلُ الْحَقَّ مِنْ كُلِّ مَنْ يَسْمَعُهُ مِنْهُ"(١).

وبعد أن أوصى النَّاظم طالب العلم بالتَّواضع بيَّن أنَّ المتكبِّر يريد أن يعلو على الحقِّ، وعلى الله تعالى، وذلك بردِّ آيات الله وسُنَّة رسوله ﷺ، ويريد أن يعلو على النَّاس ويحتقرهم، فقال: (إِنَّ التَّكَبُّرَ شَأْنُ الْعَظِيمْ): أي أنَّ الكِبر منازعة لصفةٍ مِن صفات الله تعالى الجبَّار المتكبِّر كما في حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "الْعِزُّ إِزَارُهُ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ، فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ"(٢).

---

(١) شعب الإيمان، للبيهقي، (١٠/ ٥١٠).

(٢) رواه مسلم ح٢٦٢٠.

فليحذر طالب العلم مِن هذا الخُلُق المشين، أو يرى نفسه خيرًا مِن غيره، أو يحسد أقرانه ويتَّبع هواه.

(٥١/٣٠) الوصيَّة ببرِّ الوالدين

وَكُــنْ حَسَــنَ الْــبِرِّ بِــالْوَالِدَيْنِ وَصُــولاً لِــرَحِمٍ وَخِــلٍّ حَمِــيمْ

يوصي النَّاظم ببرِّ الوالدين والإحسان إليهما، وهو مَا أوصى الله تعالى به في آياتٍ كثيرة ورسوله ﷺ في الأحاديث منها: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾[1]، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يقول تعالى آمرًا عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحثِّ على التَّمسُّك بتوحيده، فإنَّ الوالدين هما سبب وجود الإنسان، ولهما عليه غاية الإحسان، فالوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق"[2]، وفي الحديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ العَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ:

---

(١) سورة الإسراء: ٢٣-٢٤.

(٢) تفسير ابن كثير، لابن كثير، (٦/ ٢٣٨).

"الصَّلاَةُ عَلَى وَقْتِهَا"، قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: "ثُمَّ بِرُّ الوَالِدَيْنِ"، قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: "الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ"(١).

وهكذا الواجب على الجميع برِّ الوالدين وطاعتهما في المعروف، وفي حقِّ طالب العلم آكد، فلا يجعل انشغاله بالعلم سببًا في التَّقصير في حقِّ والديه، فإنَّ العلم الذي لا يحمل صاحبه على البرِّ والإحسان علمٌ ناقص البركة، قال هشام بن حسَّان، قلتُ للحسن: "إنِّي أتعلَّم القرآن، وإنَّ أُمِّي تنتظرني بالعَشاء"، فقال الحسن: "تعشَّ العَشاء مع أُمِّك، تَقَرُّ به عينُها، أَحبُّ إليَّ مِن حَجَّةٍ تَحُجُّهَا تَطَوُّعًا"(٢)، "وكان حيوة بن شريح – وهو أحد أئمَّة المسلمين – يقعدُ في حلقته يُعلِّم النَّاس، فتقول له أُمُّه: قُمْ يا حيوة، فَألقِ الشَّعيرَ للدَّجاج، فيقوم ويترك التَّعليم"(٣)، وقال عبد الله بن جعفر بن خاقان المروزي: سمعتُ بندار(٤)

(١) رواه البخاري ح٥٢٧؛ ومسلم ح٨٥.

(٢) البر والصلة، لابن الجوزي، تحقيق وتعليق وتقديم: عادل عبد الموجود، علي معوض، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٣هـ، ص٧٣.

(٣) برُّ الوالدين، للطرطوشي، تحقيق: محمد عبدالحكيم القاضي، مؤسسة الكتب الثقافية، ط٢، ١٤٠٩هـ، ص٧٩.

(٤) وهو بندار محمد بن بشار بن عثمان بن داود بن كيسان، ومعنىٰ البندار: الحافظ.

يقول: أردتُ الخروج، يعني السَّفر في طلب الحديث، فمنعتني أُمِّي، فأطعتها ولم أخرج، فبُورِكَ لي فيه"[(١)]، وقال الذَّهبي عن بُندار: "وجمع حديث البصرة، ولم يرحل برًّا بأُمِّه، ثمَّ رَحَلَ بعدها"[(٢)].

(١) تاريخ بغداد للبغدادي، تحقيق: د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ، (٢/ ٤٥٨).

(٢) سير أعلام النبلاء، للذهبي، (١٢/ ١٤٤).

(٥١/٣١) الوصيَّة بصلة الرَّحم

وَكُــنْ حَسَــنَ الْــبِرِّ بِــالْوَالِدَيْنِ وَصُــولاً لِــرَحِمٍ وَخِــلِّ حَمِــيمْ

وممَّا ينبغي على طالب العلم وغيره القيام بصلة الأرحام والإحسان إلى الأقارب، فهي مِن أعظم الواجبات, وأفضل الطَّاعات، ومِن أسباب رضا الله تعالى، وبركة العُمر، وسعة الرِّزق، وقطيعتها مِن أعظم الذُّنوب وأخطر الآفات، وقد أَمَرَ الله تعالى بها في كتابه، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[1]، ومعناها كما قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "واتَّقوا الله الذي تعاقدون وتعاهدون به، واتَّقوا الأرحام أن تقطعوها ولكن بِرُّوهَا وَصِلُوهَا"[2]، وقال الله تعالى محذِّرًا مِن قطيعة الرَّحم: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾[3].

---

(١) سورة النساء: ١.

(٢) تفسير ابن كثير، لابن كثير، (٢/ ١٨١).

(٣) سورة محمد: ٢٢-٢٣.

وهي سببٌ مِن أسباب دخول الجنة، فَعَنْ أَبِي أَيُّوبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الجَنَّةَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "تَعْبُدُ اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلاَةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ"(١).

وقطيعة الرَّحِم تسبِّب العقوبة في الدنيا والآخرة، وفي الحديث عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَا مِنْ ذَنْبٍ أَحْرَى أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ، مِنْ قَطِيعَةِ الرَّحِمِ وَالْبَغْيِ"(٢).

يقول ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "صلةُ الرَّحِم مِن أفعال الأبرار"(٣)، وسُئل عَمرُو بنُ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَن الْمُرُوءَةِ، فَقَالَ: "تقوى الله تَعَالَى وصلَة

---

(١) رواه البخاري ح١٣٩٦.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد ح٦٧، وصحَّحه الألباني في صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري برقم ٦٧.

(٣) التذكرة الحمدونية، لمحمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون، دار صادر، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ، (٩/ ١٨٢).

الرَّحِم"[1]، وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إنَّ لأهل التَّقوى علاماتٍ يُعرَفُونَ بها، صِدقُ الحديثِ، والوفاءُ بالعهدِ، وصلةُ الرَّحِمِ، ورحمةُ الضُّعفاءِ، وقِلَّةُ الفَخْرِ والخُيلاءِ، وبذلُ المعروفِ، وقِلَّةُ المُباهاةِ للنَّاس، وحُسنُ الخُلُقِ"[2].

فعلى طالب العلم ألا يجعل الاشتغال بطلب العلم عذرًا للتَّقصير في حقِّ أقاربه، بل يجعل علمه باعثًا على مزيد مِنَ البرِّ والإحسان، وزيارتهم، والسُّؤال عن أحوالهم، والاتِّصال بهم وتفقُّدهم إذا بَعُدوا، ومواساة مصابهم، ومشاركة أفراحهم، ويبدأ بأرحامه في دعوتهم، ونصحهم، والإحسان إليهم، فإنَّهم أولى النَّاس بخيره، وأحقَّهم بحُسنِ خُلُقه.

(١) المروءة، لأبي بكر المرزبان، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ، ص١٢٧.

(٢) حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصبهاني، (٢/ ١٤٣).

(٥١/٣٢) الوصيَّة بالصَّديق الحميم في الطَّلب

وَكُــنْ حَسَــنَ الْــبِرِّ بِــالْوَالِدَيْنِ وَصُــولاً لِــرَحِمٍ وَخِــلٍّ حَمِــيمْ

وقد أَمَر الله تعالى بمصاحبة الصَّالحين، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ ﴾[(١)]، وهنا يوصي شيخنا – حفظه الله – طالب العلم باتِّخاذ الصَّديق المُخلص الذي يُعينُ على الطَّاعة وطلب العلم والمذاكرة والمراجعة، فلا يُخالط إلَّا مَن يُفيده أو يستفيد منه، وبذلك يُحيي سُنَّة الأسلاف ويتدرَّب على المناقشة والحوار مع أصحابه، ويثبت العلم في ذهنه ويستحضره، ومن نفيس كلام هشام بن عبد الملك رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله: "مَا بقيَ مِن لذَّات الدُّنيا شيء إلَّا أخُّ أرفع مؤونة التَّحفظ بيني وبينه[(٢)]"، وقد بوَّبَ الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في جامعه مَا بين بابين في هذا: الأوَّل: "المذاكرة مع الأتباع والأصحاب"[(٣)]، والثَّاني: "المذاكرة مع

---

(١) سورة الكهف: ٢٨.

(٢) طبقات النسَّابين، بكر أبو زيد، دار الرشد، الرياض، ط١، ١٤٠٧هـ، ص٣١.

(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للبغدادي، (٢/ ٢٦٩).

الأقران والأتراب"[١]، وذكَرَ أمثلةً على ذلك، ومنها: كان ابن عبَّاس يقول لسعيد بن جبير: "يا سَعيد اخرُجْ بِنَا إلى النَّخل، ويقول: يا سعيد حَدِّثْ، قلتُ: أُحَدِّثْ وأنتَ شاهدٌ؟ قال: إن أخطأتَ فتحتُ عليك"[٢]، وقال إبراهيم النَّخعي: "إنَّه ليطولُ عليَّ الليلُ حتَّى ألقى أصحابي فأُذَاكِرُهُم"[٣].

فعلى طالب العلم أن يحافظ على الخلِّ الحميم، وأن يصل إخوانه في الله، ولا يقطعهم لأدنى سبب، ويسأل عنهم إذا غابوا، وزيارتهم، ومواساتهم عند المصائب، والدُّعاء لهم في ظهر الغيب، والتَّعاون معهم على البرِّ والتَّقوى.

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للبغدادي، (٢/ ٢٧٣).

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للبغدادي، (٢/ ٢٦٩).

(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للبغدادي، (٢/ ٢٦٩).

(٥١/٣٣) الوصيَّة بتعليم مَا تعلَّمه طالب العلم

وَعَلِّمْ وَبَلِّغْ لِعِلْمِكَ وَادْعُ ... بِرِفْقٍ وَصَبْرٍ وَعَزْمٍ صَمِيمْ

إنَّ مِن واجب طالب العلم أن يستمرَّ في طَلَبه للعلم، وأن يُعلِّم ويُبلِّغ مَا تعلَّمه؛ لأنَّ تعليم النَّاس مَا تعلَّمه عَمَلٌ عظيمٌ، وله أجرٌ كبيرٌ، وقد حثَّ على ذلك نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ، فَعَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ"(١)، وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "مَنْ جَاءَ مَسْجِدِي هَذَا، لَمْ يَأْتِهِ إِلَّا لِخَيْرٍ يَتَعَلَّمُهُ أَوْ يُعَلِّمُهُ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَنْ جَاءَ لِغَيْرِ ذَلِكَ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الرَّجُلِ يَنْظُرُ إِلَى مَتَاعِ غَيْرِهِ"(٢)، وفي حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ"(٣).

---

(١) رواه البخاري ح٥٠٢٧.

(٢) رواه ابن ماجه ح٢٢٧، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجة برقم ٢٢٧.

(٣) رواه البخاري ح٣٤٦١.

وإنَّ تعليم النَّاس العلم فيه اقتداء بالنَّبيِّ ﷺ، فقد علَّم النَّبيُّ ﷺ أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَلِّمُنَا الِاسْتِخَارَةَ فِي الأُمُورِ كُلِّهَا، كَالسُّورَةِ مِنَ القُرْآنِ"(١)، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُعَلِّمُهُمْ هَذَا الدُّعَاءَ كَمَا يُعَلِّمُهُمُ السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ يَقُولُ قُولُوا: "اللهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ"(٢).

وكان السَّلف يحرصون على نشر العلم وتعليمه للنَّاس، قال معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "تعلَّمُوا العلمَ، فإنَّ تعلُّمِهِ لله خشية، وطلبه عبادة، ومُدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعلِيمُهُ لِمَن لا يعلَمُهُ صدقة، وَبَذْلُهُ لأهله قربة"(٣)، وقال ابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: "لا أعلمُ بعدَ النُّبوَّة درجةً أفضلَ مِن بَثِّ العلمِ"(٤)، وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وَمَن أحبَّ أن لا ينقطعَ عَمَله بعد

---

(١) رواه البخاري ح٦٣٨٢.

(٢) رواه مسلم ح٥٩٠.

(٣) مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة المقدسي، قدَّم له: أ. محمد أحمد دهمان، مكتبَة دار البيان، دمشق، ١٣٩٨هـ، ص١٥.

(٤) شعب الإيمان، للبيهقي، (٣/ ٢٦٣).

موته، فلينشر العلمَ بالتَّدوين والتَّعليم"[١]؛ ولذلك ينبغي لِمَن رزقه الله تعالى عِلمًا نافعًا أن يُعلِّم غيره وإلَّا فإنَّ علمَهُ يضيع، قال سُفيان الثَّوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "مَن بَخِلَ بعِلْمِهِ ابتُلِيَ بثلاثٍ: إمَّا أن ينساهُ ولا يَحفَظُ، وإمَّا أن يَموتَ ولا يَنْتَفعُ به، وإمَّا أن تَذهَبَ كُتُبُهُ"[٢]، وأفضل مِن ذلك كلِّه حديثُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ"[٣].

(١) التذكرة في الوعظ، لابن الجوزي، تحقيق: أحمد عبد الوهاب فتيح، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ، ص٥٥.

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للبغدادي، (١/ ٢٤٠).

(٣) رواه مسلم ح١٦٣١.

(٥١/٣٤) الوصيَّة بالدَّعوة إلى الله تعالى

وَعَلِّمْ وَبَلِّغْ لِعِلْمِكَ وَادْعُ ... بِرِفْقٍ وَصَبْرٍ وَعَزْمٍ صَمِيمْ

إنَّ مِن أعظم الغايات التي ينبغي أن يتوجَّه إليها طالب العلم بعد تعلُّمه الدَّعوة إلى الله تعالى، وتعليم النَّاس الخير، وإرشادهم إلى مَا ينفعهم في دنياهم وأُخراهم، قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1]، وهي مِن أحسن الأقوال والأعمال، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[2].

فالدَّعوة إلى الله تعالى مِن أشرف الأعمال التي يؤدِّيها المسلم، وهي وظيفة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[3]، وورِث الدُّعاة مِن بعدهم

---

(١) سورة آل عمران: ١٠٤.

(٢) سورة فصلت: ٣٣.

(٣) سورة النَّحل: ٣٦.

أَمْرَ الدَّعوة، وسلكوا طريقهم ليكونوا أتباعهم حقًّا مصداقًا لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[1].

وبيَّن النَّاظم في هذه الوصيَّة أهم مَا ينبغي أن يتَّصفَ به طالب العلم الذي يدعو إلى الله تعالى وهي الرِّفق والصَّبر في الدَّعوة:

فيجب على الدَّاعية أن يكون رفيقًا بالمدعوِّين؛ لأنَّ الرِّفق هو أقرب الطُّرق إلى القلوب، وأهم أسباب القبول، ولذلك قال الله تعالى لموسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[2]، فإذا أُعطيَ الدَّاعية الرِّفق فقد أُعطيَ مفاتيح النَّجاح في دعوته، وتبليغ رسالته؛ لذلك عليه أن يَستخدم الأسلوب الهادئ، والكلمة الطَّيِّبة اللَّيِّنة الرَّقيقة، حتى يصل إلى قلوب النَّاس مِن أقصر الطُّرق وأقربها، ويستجيبون لدعوته، وقد أرشد الله تعالى إلى أنَّ الدَّعوة تحتاج إلى علمٍ وحكمةٍ

---

(١) سورة يوسف: ١٠٨.

(٢) سورة طه: ٤٣-٤٤.

وحُسن أسلوب فقال: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾[1]،

وقد امتنَّ الله تعالى على نبيِّه ﷺ بما وفَّقه له مِنَ الرِّفق واللِّين فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴾[2]، وكان النَّبيُّ ﷺ يحثُّ على الرِّفق، ويُرغِّبُ فيه، فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ"[3]، وَعَنْهَا أيضًا: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ"[4].

---

(١) سورة النحل: ١٢٥.

(٢) سورة آل عمران: ١٥٩.

(٣) رواه مسلم ح٢٥٩٣.

(٤) رواه مسلم ح٢٥٩٤.

قال سفيان الثَّوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لا يأمر بالمعروف، ولا ينهى عن المنكر إلَّا مَن كان فيه خِصَالٌ ثلاثٌ: رفيقٌ بما يأمر، رفيقٌ بما ينهى، عَدْلٌ بما يأمر، عَدْلٌ بما ينهى، عَالِمٌ بما يأمر، عَالِمٌ بما ينهى"(١)، وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ : "النَّاسُ يحتاجونَ إلى مُداراةٍ ورفقٍ في الأمر بالمعروف بلا غلظة، إلَّا رجلاً مُبَايِنًا، مُعْلِنًا بالفِسق والرَّدى، فيجبُ عليك نهيُهُ وإعلامُهُ؛ لأنَّه يُقال: ليس لفاسِقٍ حُرمةٌ، فهذا لا حُرمةَ له"(٢).

كما يجب على الدَّاعية الصَّبر في دعوته، فالصَّبر مِن أهمِّ المهمَّات، وأوجب الواجبات، والنَّاظر في كتاب الله تعالى سيجد أنَّ هناك تاريخًا كبيرًا للدُّعاة والمصلحين مِنَ الأنبياء والمرسلين والصَّالحين ممَّن اختارهم الله تعالى لنشر رسالته وتبليغ دعوته، فقد صبروا على أقوامهم حتى كَتَبَ الله لهم الفوز والظَّفر، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾(٣).

---

(١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، للخلال، تحقيق: د. يحيىٰ مراد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ، ص٢٤.

(٢) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، للخلال، ص٢٤.

(٣) سورة يوسف: ١١٠.

وهكذا مَن سَلَكَ طريق الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ لا بُدَّ أن يجدَ مِنَ المدعوِّين الكلمات الجارحة، والعبارات القاسية، والتَّذكير بالماضي، وغير ذلك مِنَ التَّحقير والتَّسفيه، فعليه أن يصبر ويُصابر، ويتقبَّل المشاق، ويتحمل الأذى في سبيل الدَّعوة إلى الله، يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:"فكلُّ مَن قامَ بحقٍّ أو أَمَرَ بمعروفٍ، أو نَهَى عن منكرٍ فلا بُدَّ أن يُؤذى، فما له دواءٌ إلَّا الصَّبرُ في الله، والاستعانة بالله، والرُّجوع إلى الله عَزَّ وَجَلَّ"(١)، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لا بُدَّ مِن هذه الثَّلاثة: العلم، والرِّفق، والصَّبر؛ العلم قبل الأمر والنَّهي؛ والرِّفق معه، والصَّبر بعده"(٢).

قوله: (وَعَزْمٍ صَمِيمْ): كن متميِّزًا في دعوتك بالهمَّة العالية، والإرادة القويَّة، صابرًا على الأذى في سبيل ذلك، اقتداءً بالرُّسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ في الثَّبات على الحقِّ ونشر الدِّين، فأهل الحقِّ يُقابلون أهل الباطل بصبرٍ وعزيمة وإصرار في تحمُّل الأذى كما قال لقمان لابنه: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾(٣)، قال

---

(١) تفسير ابن كثير، لابن كثير، (٢/ ١٥٩).

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (٢٨/ ١٣٧).

(٣) سورة لقمان: ١٧.

السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره: "وَلَمَّا عَلِمَ أَنَّه لا بُدَّ أن يُبتلى إذا أَمَرَ وَنَهى، وأنَّ في الأمرِ والنَّهي مشقَّةً على النُّفوس، أَمَرَهُ بالصَّبر على ذلك فقال: ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ الذي وَعَظَ به لقمان ابنه ﴿ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ أي: مِنَ الأمور التي يعزم عليها، ويهتم بها، ولا يُوفَّق لها إلَّا أهل العزائم"(١).

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٦٤٨.

(٥١/٣٥) الوصيَّة بالاستقامة على الطَّاعة

وَكُنْ مُسْتَقِيمًا وَقُدْوَةَ خَيْرٍ تَفُزْ بَعْدَ ذَا بِالرِّضَا وَالنَّعِيمْ

وَكُنْ – يا طالب العلم - مُسْتَقِيمًا: على طاعة الله تعالى، ولزوم الصِّراط المستقيم، وفِعْل أوامر الله طمعًا في ثوابه، واجتناب نواهيه خوفًا مِن عقابه، قال عمر بن الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "الاستقامةُ: أن تستقيمَ على الأمرِ والنَّهي، ولا تروغُ روغانَ الثَّعالب"(١)، وهي مِن صفات المؤمنين، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾(٢)، وأَمَرَ الله تعالى نبيَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين بها وحثَّهم على ملازمتها، فقال: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾(٣).

وهناك أمور كثيرة تعينُ المسلم على الاستقامة والثَّبات على الطَّاعة والاستمرار عليها حتى الموت، منها:

---

(١) مدارج السالكين، لابن القيم، (٢/ ١٠٤).

(٢) سورة فصلت: ٣٠.

(٣) سورة هود: ١١٢.

الأوَّل: إصلاح القلب، وهو الأهم؛ لأنَّ الجوارح تَبَعٌ له، فَعَنِ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "الحَلاَلُ بَيِّنٌ، وَالحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى المُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ: كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلاَ إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ"(١)، قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: "فأصلُ الاستقامةِ: استقامةُ القلب على التَّوحيد، كما فَسَّرَ أبو بكرٍ الصِّدِّيق وغيره قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾(٢)، بأنَّهم لم يلتفتوا إلى غيره، فمتى استقامَ القلبُ على معرفة الله، وعلى خشيته، وإجلاله، ومهابته، ومحبته، وإرادته، ورجائه، ودعائه، والتَّوكُّل عليه، والإعراض عمَّا سواه، استقامت الجوارحُ كُلُّها على طاعته، فإنَّ القلبَ هو مَلِكُ الأعضاء، وهي جنوده، فإذا استقامَ المَلِكُ، استقامت جنودُهُ ورعَايَاهُ"(٣).

---

(١) رواه البخاري ح٥٢؛ ومسلم ح١٥٩٩.

(٢) سورة الأحقاف: ١٣.

(٣) جامع العلوم والحكم، لابن رجب، (١/ ٥١١).

الثَّاني: إمساك اللِّسان عن الخوض في الباطل، وهو أعظم مَا يُراعى استقامته بعد استقامة القلب، كما قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأعظمُ مَا يُراعى استقامته بعد القلب مِنَ الجوارح اللِّسان، فإنَّه تُرجمانُ القلبِ والمُعبِّرُ عنهُ"(١). وفي الحديث عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ الثَّقَفِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، حَدِّثْنِي بِأَمْرٍ أَعْتَصِمُ بِهِ، قَالَ: "قُلْ: رَبِّيَ اللهُ، ثُمَّ اسْتَقِمْ"، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَكْبَرُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ؟ قَالَ: فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِلِسَانِ نَفْسِهِ، ثُمَّ قَالَ: هَذَا"(٢).

الثَّالث: لزومُ الاتِّباع، وتركُ الابتداع: يقول أبوبكر الصِّدِّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: "إنَّما أنا مُتَّبِع ولستُ بمبتدع، فإن استقمتُ فبايعوني، وإن زِغتُ فقوِّموني"(٣)، وقال أيضًا: "لَسْتُ تَارِكًا شَيْئًا، كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْمَلُ بِهِ إِلَّا عَمِلْتُ بِهِ، فَإِنِّي أَخْشَى إِنْ تَرَكْتُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ أَنْ أَزِيغَ"(٤)، وقال سفيان

---

(١) جامع العلوم والحكم، لابن رجب، (١/ ٥١٢).

(٢) رواه أحمد ح١٥٤١٨، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجة برقم ٣٩٧٢.

(٣) البداية والنهاية، لابن كثير، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي ط١، ١٤٠٨هـ، (٦/ ٣٣٤).

(٤) أخرجه البخاري برقم ٣٠٩٢؛ ومسلم برقم ١٧٥٩.

الثَّوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لا يستقيمُ قولٌ إلَّا بعملٍ، ولا يستقيمُ قولٌ وعملٌ إلَّا بنيَّةٍ، ولا يستقيمُ قولٌ وعملٌ ونيَّةٌ إلَّا بموافقة السُّنَّة"(١).

وطالب العلم أحوج النَّاس إلى الاستقامة؛ لأنَّه قد يعلم مِنَ الأحكام مَا لا يعلمه غيره. فإذا لم يعمل بعلمه كان علمه حُجَّةً عليه، ومِن الاستقامة: المحافظة على الصَّلوات المكتوبات في أوقاتها مع النَّوافل، والمداومة على تلاوة القرآن الكريم وذكر الله تعالى، والاستمرار في طلب العلم، وملازمة الأخلاق الحسنة، والمبادرة إلى التَّوبة إذا وقع في ذنبٍ أو تقصير.

(١) حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصبهاني، (٧/ ٣٢).

(٥١/٣٦) الوصيَّة بأن يكون قدوةً لغيره

وَكُنْ مُسْتَقِيمًا وَقُدْوَةَ خَيْرٍ ... تَفُزْ بَعْدَ ذَا بِالرِّضَا وَالنَّعِيمْ

قوله: (وَكُنْ.. قُدْوَةَ خَيْرٍ): وهكذا مَن جَمَعَ بين العلم والعمل والتَّعليم وبذلَ نفسه للنَّاس ينبغي أن يكون قدوةَ خيرٍ لغيره، وألا يكون ظاهره خِلاف باطنه، وهو أولى النَّاس بالقيام بالواجبات الظَّاهرة والباطنة وترك المحرَّمات؛ لأنه تميَّز عن غيره بالعلم والمعرفة بالحلال والحرام، والثَّواب والعقاب، والتَّرغيب والتَّرهيب، ولأنَّه بمنزلة السَّفينة: في نجاتها نجاةُ مَن فيها، وفي غَرَقِها غَرَقُ مَن فيها.

فالواجب عليه أن يكون قدوةً في أقواله وأفعاله وأخلاقه، وبكلِّ مَا يحمله مِنَ المبادئ والقِيَم التي تدعو إلى الخير وتحثُّ على الفضيلة، فإنَّ ذلك أيسرُ وأسرعُ في إيصال المعاني، وأبلغُ مِن كثيرٍ مِنَ المواعظ والنَّصائح القوليَّة؛ ولهذا "كان يجتمعُ في مجلس أحمدَ زُهَاءُ على خمسةِ آلافٍ، أو يزيدون، أقلُّ مِن خمسمائةٍ يكتبون، والباقي يتعلمون منه حُسنَ الأدب وحُسنَ السَّمت"[1]،

(١) الآداب الشَّرعية، لابن مفلح، (٢/ ١٢).

قال ابن وهب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "مَا تَعلَّمتُ مِنْ أَدَبِ مَالِكٍ أَفضلَ مِنْ عِلْمِهِ"(١)،

ولقد أحسن ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث يقول(٢):

أَيُّهَـــا الطَّـــالِبُ عِلْمًـــا ... ائْتِ حَمَّـــادَ بْـــنَ زَيْـــدِ

فَـاقْـتَـبِـسْ حِـلْـمًـا وَعِـلْـمًـا ... ثُمَّ قَيِّـــــدْهُ بِقَيْـــــدِ

وقد حثَّ الله تعالى بالاقتداء بالرُّسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾(٣)، قال الطَّبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فبالعمل الذي عَمِلُوا، والمنهاج الذي سَلَكُوا، وبالهُدى الذي هديناهم، والتَّوفيق الذي وفَّقناهم اقتده، أي: فاعمل، وَخُذ به واسْلُكْهُ، فإنَّه عَمَلٌ لله فيه رضًا، ومنهاجٌ مَنْ سَلَكَهُ اهتدى"(٤).

ووصف الله عَزَّ وَجَلَّ بعض عباده المؤمنين المصطفين بالإمامة؛ إيماءً أنَّهم أهلٌ للاقتداء فقال: ﴿ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ

---

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبي، (٨/ ١١٣).

(٢) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، (١/ ٥٠٩).

(٣) سورة الأنعام: ٩٠.

(٤) جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ، (١١/ ٥١٩).

ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾[1]، وأفضلُ الخَلْق أُسوةً وقدوةً هو نبيُّنا محمَّد ﷺ، قال ﷻ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[2].

وكان النَّبيُّ ﷺ قدوةً حسنة، فكان يقول ﷺ: "صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي"[3]، وكان يعملُ العمل أمام الصَّحابة رضي الله عنهم ويقول لهم: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي صَنَعْتُ هَذَا لِتَأْتَمُّوا بِي، وَلِتَعَلَّمُوا صَلَاتِي"[4]، وغيرها.

ومما يجب التنبيه إليه والتحذير منه ما يُحاك اليوم من محاولاتٍ لإسقاط القدوات الحسنة في المجتمعات المسلمة، وتشويه صورتهم، وبثِّ الشائعات ضدهم؛ فإن إسقاط القدوات الصالحة وإضعاف الثقة بهم يفتح بابًا للاضطراب والانحراف، ويحرم الأجيال من النماذج الصالحة التي تقتدي بها.

---

(١) سورة الأنبياء: ٧٣.

(٢) سورة الأحزاب: ٢١.

(٣) رواه البخاري ح٦٣١.

(٤) رواه مسلم ح٥٤٤.

فمن أراد القدوة فليقتدِ بهدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، والسلف الصالح من العلماء الربانيين، والأئمة الصالحين، ومن تبعهم بإحسان.

وقوله: (تَفُزْ بَعْدَ ذَا بِالرِّضَا وَالنَّعِيمْ): أي أنَّ مَن يسير على طريق الطَّاعة والاستقامة على طريق الحقِّ وفِعْل الخير فقد فاز برضا الله تعالى ونعيمه، وهي أعظم كرامة ينالها أولياء الله بعد الإيمان؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[1].

(١) سورة الأحقاف: ١٣-١٤.

(٥١/٢٧) الوصيَّة بترك التَّعصُّب المذموم

وَلَا تَتَعَصَّبْ لِشَيْخٍ وَجَمْعٍ وَحِزْبٍ وَقَوْمٍ وَرَأْيٍ سَقِيمْ

وفي هذا البيت يحذِّر النَّاظم مِنَ التَّعصُّب بكافَّة أشكاله وَصُوَرِه، سواء كان للشَّيخ، أو الجماعة، أو الحزب، أو القوم، أو الرَّأي السَّقيم؛ لأنَّه انحيازٌ أعمى للباطل والظُّلم والخطأ، ورفض الحقِّ والعدل، وهو داءٌ مُهلِك يُفرِّقُ الأُمَّة ويُقوِّض المجتمع، ويؤدِّي إلى نصرة الظَّالم وحماية الباطل لمجرَّد الانتماء، وهو مِن أسباب النِّزاع والخلاف والفرقة والكراهيَّة، فالتَّعصُّب يُغطِّي على العقول، وعنده تعمى القلوب التي في الصُّدور. قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "التَّعَصُّبُ للمذاهب، وَالطَّرَائِقِ، والمشايخ، وتفضيل بَعضِهَا على بعضٍ بالهوى والعصبيَّة، وَكَوْنُهُ مُنْتَسِبًا إليه، فيدعو إلى ذلك ويُوالي عليه، ويُعادي عليه، وَيَزِنُ النَّاسَ بِهِ، كلُّ هذا مِن دعوى الجاهليَّة"(١).

وقد ذمَّت الشَّريعة التَّعصُّب، قال تعالى: ﴿ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ﴾(٢)، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أي فلا يحملنَّكُم الهوى والعصبيَّة

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم، مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط٢٧، ١٤١٥هـ، (٢/ ٤٣١).

(٢) سورة النساء: ١٣٥.

وَبُغْض النَّاس إليكم على تَركِ العدلِ في أموركم وشؤونكم، بل الزموا العدلَ على أيِّ حالٍ كان"[(١)]، وقال تعالى في ذمِّ مُعتقَد مُشركي قريش ومَا حملهم عليه مِنَ العصبية الباطلة: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾[(٢)]، "حميَّة الجاهليَّة: العصبيَّة لآلهتهم التي كانوا يعبدونها مِن دون الله, والأنفة مِن أن يعبدوا غيرها"[(٣)]، وحذَّر النَّبيُّ ﷺ مِن أن يكون الغضب والنُّصرة لمجرد العصبة والانتماء، لا للحقِّ فقال: "مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ، وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ، أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً، فَقُتِلَ، فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ"[(٤)].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومَن نَصَّبَ شخصًا كائنًا مَن كان، فوالى وعادى على موافقته في القول والفعل فهو مِنَ الذين فرَّقوا دينهم وكانوا

---

(١) تفسير ابن كثير، لابن كثير، (٢/ ٣٨٣).

(٢) سورة الفتح: ٢٦.

(٣) تفسير الماوردي، النكت والعيون، للماوردي، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (٥/ ٣٢٠).

(٤) رواه مسلم ح١٨٤٨.

شيعًا"[١]؛ ولذلك فقد نُقِلَ عن السَّلف أنَّهم كانوا يقولون في الفروع: مذهبي صوابٌ يحتملُ الخطأ، ومذهب الخصم خطأٌ يحتملُ الصَّواب[٢].

فيجبُ على طالب العلم أن يتخلَّى عن الطَّائفيَّة والحزبيَّة، فلا يعقد الولاء والبراء على طائفةٍ أو حزبٍ معيَّن، فالسَّلف الصَّالح ليسوا أحزابًا؛ وإنَّما هم حزبٌ واحد، ينضوون تحت قول الله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾[٣]، ولكن عندما ظهرت الأحزاب في المسلمين، تفرَّقت الأمَّة، وضلَّلَ وبدَّع بعضهم بعضًا، ورأى كلَّ واحدٍ منهم أنَّ شيخه هو العَالِم المُصلِح، ومَن سواه جاهلٌ ضالٌّ مضلٌّ، ولحقهم الفشل كما قال تعالى في كتابه: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[٤]، وهذا كلُّه خطأ؛ بل يجب أخذ قول مَن وافق الكتاب والسُّنَّة على فهم السَّلف.

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (٢٠/ ٨).

(٢) الردود والنقود شرح مختصر ابن الحاجب، لمحمد بن محمود بن أحمد البابرتي الحنفي، تحقيق: ضيف الله بن صالح العمري وترحيب بن ربيعان الدوسري، الناشر: مكتبة الرشد ناشرون، ط١، ١٤٢٦هـ، (١/ ٦٣٦).

(٣) سورة الحج: ٧٨.

(٤) سورة الأنفال: ٤٦.

(٥١/٣٨) الوصيَّة بالتَّعاون على البرِّ مع الدُّعاة

وَعَـاوِنْ عَـلَى الْـبِرِّ كُـلَّ الدُّعَـاةِ ... وَقُـلْ خَيْرَ قَوْلٍ بِنُصْـحِ الْحَمِيمْ

إنَّ الواجب على طالب العلم أن يعاون الدُّعاة على إقامة الدِّين ونشر الدَّعوة بشتَّى الوسائل المشروعة، وقد قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾[١]، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أي من يساعدني في الدَّعوة إلى الله"[٢].

ويقول الله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ ﴾[٣]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾[٤]، ففي الآيات مَا يدلُّ على التَّعاون بين أهل الخير، فهم يتناصرون على الخير، ويتعاونون على الطَّاعة، ويأخذ

---

(١) سورة الصَّف: ١٤.

(٢) البداية والنِّهاية، لابن كثير، (٢/ ١٠١).

(٣) سورة المائدة: ٢.

(٤) سورة التوبة: ٧١.

بعضهم بيد بعض. وفي الحديث عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا" وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ(١).

ولهذا ينبغي أن يتعاون طالب العلم مع الدُّعاة إلى الله تعالى؛ ليشدَّ مِن أزرهم ويتقوَّى بهم كما قال الله تعالى لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾(٢)، وقال ورقة بن نوفل للنَّبيِّ ﷺ: "لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ"، قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا"(٣)، أي أعاونك وأؤيِّدك في نَشر دعوتك، وقال جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "مَكَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ يَتْبَعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ بِعُكَاظٍ وَمَجَنَّةَ وَفِي

---

(١) رواه البخاري ح٢٤٤٦.

(٢) سورة القصص: ٣٥.

(٣) رواه البخاري ح٣.

الْمَوَاسِمِ بِمِنًى يَقُولُ مَنْ يُؤْوِينِي؟ مَنْ يَنْصُرُنِي؟ حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي وَلَهُ الْجَنَّةُ"(١).

وهكذا فإنَّ على طالب العلم أن يجمع بين العلم والدَّعوة، والتَّعاون مع إخوانه في إقامة الدُّروس والمحاضرات والبرامج النَّافعة، وتبادل الخبرات والمشورة فيما يخدم الدَّعوة، وإحالة النَّاس إلى مِن هو أعلم في المسائل التي لا يُحسنها، وتغطية دروس بعضهم عند الحاجة ومساندتهم عند العجز والمرض، والتَّناصح فيما بينهم مع حِفظ المحبَّة والمودَّة، ممَّا يُثمِر دعوة مستمرَّة على بصيرة، ويحقِّق مقاصد الشَّريعة في إصلاح المجتمع عبر تضافر الجهود العلميَّة والدَّعويَّة لتحقيق الخير والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر.

(٤) رواه أحمد ح١٤٤٥٦، قال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم ٦٣: هذا إسناد صحيح على شرط مسلم.

(٥١/٣٩) الوصيَّة بنُصح الأخ لأخيه بالرِّفق

وَعَـاوِنْ عَـلَى الْـبِرِّ كُـلَّ الدُّعَـاةِ ... وَقُـلْ خَيْرَ قَوْلٍ بِنُصْـحِ الْحَمِيمْ

فينبغي على كلِّ واحدٍ أن ينصح لأخيه، فالمؤمن مرآة أخيه المؤمن ينصح له ويرشده إلى مصالحه ويعينه على الطَّاعة، وقد جاء عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى إِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ"(١)، وعن الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ قال: "المؤمن شُعبة مِن المؤمن، وهو مرآة أخيه، إن رأى منه مَا لا يُعجبه سدَّدَهُ وقوَّمَهُ ونَصَحَهُ السِّرَّ والعلانية"(٢).

ويكون ذلك النُّصح باللِّين والرِّفق واللُّطف في القول، وتجنُّب الحوار الحاد والمناقشة القاسية، والبُعد عن العنف وأي طريقة مستفزَّة أو غليظة، قال الله تعالى: ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾(٣)، وفي الحديث عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ

---

(١) رواه البخاري ح٥٧؛ ومسلم ح٥٦.

(٢) روضة العقلاء، لابن حبان، ص١٩٥.

(٣) سورة البقرة: ٨٣.

النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ"(١).

(١) رواه مسلم ح٢٥٩٣.

(٥١/٤٠) الوصيَّة بترك المراء والجدال

وَلَا لَا تُمَـــارِ مِـــرَاءً مُـــزِلَّا وَجَادِلْ بِحُسْـــنٍ لِقَصْـــدٍ سَـــلِيمْ

يوصي النَّاظم في هذا البيت بترك المراء والجدال، ويُشيرُ إلى أنَّ الجدال منه مَا هو محمود، ومنه مَا هو مذموم، فالجدال المحمود: مَا كان لبيان الحقِّ، وهداية النَّاس بحُسنِ خُلُقٍ، قال الله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾[٢].

والمراء وهو الجدال المذموم الذي يُوقع صاحبه في الزَّلل والخطأ، ومِن أسباب ضلال النَّاس، وهو مَا كان مِن أجل المغالبة والمجادلة، وحُبِّ العلوِّ والظُّهور كما قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأمَّا الباعثُ على هذا فهو التَّرَفُّعُ بِإِظهَارِ العِلمِ وَالْفَضلِ وَالتَّهَجُّمِ عَلَى الغَيرِ بإظهار نقصه، وهما شهوتان باطنتان للنَّفس، قويَّتان لها"[٣]. وفي الحديث عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ

---

(١) سورة النحل: ١٢٥.

(٢) سورة العنكبوت: ٤٦.

(٣) إحياء علوم الدين، للغزالي، (٣/ ١١٧).

اللهِ ﷺ: "مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾[1]"[2]، وعن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيَصْرِفَ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ، فَهُوَ فِي النَّارِ"[3].

وينبغي ترك المراء وإن كان قائله مُحقًّا فهو أفضل؛ لِمَا جاء في الحديث عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ"[4].

وقد ذمَّ السَّلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ الجدال والمراء، ومن ذلك قول معروف الكرخي رَحِمَهُ اللَّهُ: "إذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيرًا فتح عليه بابَ العملِ، وأغلقَ عنه بابَ

---

(١) سورة الزخرف: ٥٨.

(٢) رواه أحمد ح٢٢١٦٤؛ والترمذي ح٣٢٥٣؛ وصحَّحه الألباني في مشكاة المصابيح برقم ١٨٠.

(٣) رواه ابن ماجه ح٢٥٣، وحسَّنه الألباني في صحيح وضعيف ابن ماجه ح٢٥٣.

(٤) رواه أبو داود ح٤٨٠٠؛ وحسَّنه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم ٤٨٠٠.

الجدل، وإذا أرادَ بعبدٍ شرًّا أغلقَ عليه بابَ العمل، وفتحَ عليه بابَ الجدل"(١)، وقال الإمام البربهاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والعجب كيف يجترئ الرَّجل على المراء والخصومة والجدال، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾(٢)، فعليك بالتَّسليم والرِّضى بالآثار وأهل الآثار، والكفِّ والسُّكوت"(٣).

وللمِراء والجدال آثارٌ خطيرة، بيَّنها السَّلف، ومِن ذلك قول جعفر بن محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إيَّاكُم والخصومة في الدِّين، فإنَّها تُشْغِلُ القلب، وَتُورِثُ النِّفاق"(٤)، وقال محمد بن علي بن الحسين: "الخصومةُ تمحقُ الدِّين وَتُثَبِّتُ الشَّحناءَ في صدور الرِّجال"(٥)، وقال الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إذا أرادَ اللهُ بقومٍ شرًّا ألزمهم الجدل، ومنعهم العمل"(٦).

---

(١) حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصبهاني، (٨/ ٣٦١).

(٢) سورة غافر: ٤.

(٣) شرح السُّنَّة، للبربهاري، تحقيق وتعليق: عبدالرحمن الجميزي، دار المنهاج، الرياض، ط١، ١٤٢٦هـ، ص٨٧.

(٤) حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصبهاني، (٣/ ١٩٨).

(٥) الآداب الشَّرعية، لابن مفلح، (١/ ١٨).

(٦) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي، (١/ ١٦٤).

فالجدال والمراء سببٌ مِن أسباب الخروج عن الانصاف والوقوع في موبقات التَّعصُّب، قال الشَّوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وَمن جملَة الأَسبَاب الَّتِي يتسبَّبُ عَنهَا ترك الإِنصَاف وكتمُ الحقِّ وغمط الصَّوَاب مَا يَقع بِأهل العلم مِنَ الجِدَال والمِرَاء"(١)؛ ولهذا فإنَّ ترك المراء سببٌ لوجود حلاوة الإيمان كما قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: "ثلاث مَن كُنَّ فيه يجد بهنَّ حلاوة الإيمان: ترك المِراء في الحقِّ، والكذب في المزاحة، ويعلم أنَّ مَا أصابه لم يكن ليخطئه وأنَّ مَا أخطأهُ لم يكن ليصيبه"(٢).

(١) أدب الطلب ومنتهىٰ الأدب، للشوكاني، تحقيق: عبد الله يحيىٰ السريحي، دار ابن حزم، لبنان، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ، ص٥٨.

(٢) الإبانة الكبرىٰ، لابن بطة، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤١٥هـ، (٤/ ٥٧).

(٥١/٤١) الوصيَّة بالصَّحبة الصَّالحة، والتَّحذير مِن رفقة السُّوء

وَمِنْ رِفْقَـةِ السُّوءِ فَـاحْـذَرْ بُنَيَّ وَصَـــاحِبْ تَقِيًّا يَقِيكَ الْجَحِيمْ

يقرِّرُ شيخنا – حفظه الله – أصلاً تربويًّا عظيمًا في طريق طالب العلم، إذ يضع له قاعدةً حاسمة في بناء شخصيَّته وسلوكه: وهي أنَّ الصُّحبة إمَّا أن ترفعه أو تهلكه؛ ولذلك جمع بين التَّحذير والتَّوجيه في ذلك. وفي الحديث بيَّن النَّبيُّ ﷺ أثر الصُّحبة في الخير والشَّر، فعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: "مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ، كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ، فَحَامِلُ المِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً"(١).

والجليس والرَّفيق والصَّاحب له تأثيرٌ كبيرٌ على مَن يُجالس ويُرافق ويُصاحب، قال الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: "الطِّباع مجبولةٌ على التَّشبُّه والاقتداء؛ بل الطَّبع يسرقُ مِنَ الطَّبع مِن حيثُ لا يدري صاحبه، فمجالسة الحريص على

(١) رواه البخاري، ح٥٥٣٤؛ ومسلم ح٢٦٢٨.

الدُّنيا تحرِّكُ الحرص، ومجالسة الزَّاهد تُزهِّد في الدُّنيا؛ فلذلك تُكرهُ صحبة طُلَّاب الدُّنيا، ويستحبُّ صُحبة الرَّاغبين في الآخرة"(١).

وقوله: (وَمِنْ رِفْقَةِ السُّوءِ فَاحْذَرْ بُنَيَّ): أي احذر يا بُني مِن مرافقة أهل السُّوء؛ لأنَّهم يُفسدونَ عليك دينك وأخلاقك، ويجرُّونك إلى المعاصي والغفلة، ويزيِّنون لك الباطل حتى تألفه، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾(٢)، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾(٣).

---

(١) إحياء علوم الدين، للغزالي، (٢/ ١٧٣).

(٢) سورة الفرقان: ٢٧-٢٩.

(٣) سورة الكهف: ٢٨.

وقد بدأ النَّاظم بالتَّحذير؛ لأنَّ الشَّرَّ مقدَّمٌ على جلب الخير، فبدأ بالنَّهي عن رفقة السُّوء قبل الأمر بصحبة الصَّالحين، قال ابن حبَّان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "العاقل لا يصاحب الأشرار؛ لأنَّ صُحبة صاحب السُّوء قطعة مِنَ النَّار تعقب الضَّغائن، لا يستقيم ودَّه ولا يفي بعهده"(١).

وقد وَعَظَ المخزومي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ابنه فقال: "إيَّاك وإخوان السُّوء، فإنَّهم يخونون مَن رافقهم، ويُحزِنونَ مَن صادقهم، وقُربُهم أعدى مِنَ الجَرَب، ورفضهم مِنَ استكمال الأدب"(٢).

وقوله: (وَصَاحِبْ تَقِيًّا يَقِيكَ الْجَحِيمْ): أي الزم صحبة الرَّجل التَّقيَّ الصَّالح؛ لأنَّه يعينك على الطَّاعة، ويُذكِّرك بالله تعالى، ويثبِّتك على الدِّين، ويكون سببًا في نجاتك مِنَ النَّار، يقول الله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾(٣).

---

(١) روضة العقلاء، لابن حبان، ص١٠١.

(٢) روضة العقلاء، لابن حبان، ص٢٠١.

(٣) سورة الكهف: ٢٨.

وطالبُ العلم أحوج مَا يكون إلى مَن يُذكِّره إذا غَفِل، ويقوِّمه إذا أخطأ، ويشجِّعه إذا فَتَر، فإن لم يجد ذلك، ضَعُفَ سَيْرُهُ وربَّما انقطع. فمخالطة المؤمنين ذوي الأخلاق الحسنة، ومجالستهم والسَّماع منهم، مما يعين على اكتساب أخلاقهم والتأثر بسمتهم؛ فإنَّ الطَّبع يسرق مِنَ الطَّبع والصَّاحب ساحب؛ ولذلك قال النَّبيُّ ﷺ: "لَا تَصْحَبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ"(١).

وفي الحديث عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِذَا خَلَّصَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ النَّارِ وَأَمِنُوا، فَمَا مُجَادَلَةُ أَحَدِكُمْ لِصَاحِبِهِ فِي الْحَقِّ يَكُونُ لَهُ فِي الدُّنْيَا، أَشَدَّ مُجَادَلَةً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِرَبِّهِمْ فِي إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ أُدْخِلُوا النَّارَ، قَالَ: يَقُولُونَ: رَبَّنَا، إِخْوَانُنَا، كَانُوا يُصَلُّونَ مَعَنَا، وَيَصُومُونَ مَعَنَا، وَيَحُجُّونَ مَعَنَا، فَأَدْخَلْتَهُمُ النَّارَ، فَيَقُولُ: اذْهَبُوا، فَأَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ مِنْهُمْ، فَيَأْتُونَهُمْ، فَيَعْرِفُونَهُمْ بِصُوَرِهِمْ، لَا تَأْكُلُ النَّارُ صُوَرَهُمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ النَّارُ

(١) رواه أحمد ح١١٣٣٧؛ وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته برقم ٧٣٣٧.

إِلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ إِلَى كَعْبَيْهِ، فَيُخْرِجُونَهُمْ، فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا، أَخْرَجْنَا مَنْ قَدْ أَمَرْتَنَا، ثُمَّ يَقُولُ: أَخْرِجُوا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ وَزْنُ دِينَارٍ مِنَ الْإِيمَانِ، ثُمَّ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ وَزْنُ نِصْفِ دِينَارٍ، ثُمَّ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ"(١).

قال أبو عبد الرَّحمن السلمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إذا أراد الله بعبدٍ مِن عبيده خيرًا، وفَّقه لمعاشرة أهل السُّنَّة وأهل السِّتر والصَّلاح والدِّين، وَيَرُدُّهُ عن صحبة أهل الهوى والبدع والمخالفين"(٢)، وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "استكثروا مِنَ الأصدقاء المؤمنين، فإنَّ لهم شفاعة يوم القيامة"(٣).

(١) رواه ابن ماجه ح٦٠، وصححه الألباني في صحيح وضعيف ابن ماجه.

(٢) آداب الصحبة، لأبي عبدالرحمن السلمي، تحقيق: مجدي فتحي السيد، دار الصحابة للتراث، طنطا، مصر، ط١، ١٤١٠هـ، ص٤١.

(٣) تفسير البغوي، للإمام البغوي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ، (٣/ ٤٧٣).

(٥١/٤٢) الوصيَّة بطهارة القلب وبسلامة الصَّدر

وَطَهِّرْ فُؤَادَكَ مِنْ كُلِّ سُوءٍ ... وَحِقْدٍ دَفِينٍ وَغِلٍّ كَظِيمْ
وَبِتْ سَالِمَ الصَّدْرِ تُمْسِ بَهِيجًا ... وَتُصْبِحُ فِينَا بِقَلْبٍ سَلِيمْ

هذه الأبيات ليست مجرَّد توجيهات أخلاقيَّة، بل هي منهجٌ متكاملٌ لتزكية قلب طالب العلم؛ لأنَّ القلبَ مَلكُ الأعضاء، وسائر الجوارح جنوده، وهو موضع نَظَرُ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومحلّ القبول، ومعدن الإخلاص. وطالبُ العلم قد يُعنى بحفظِ النُّصوص وتتبُّع المسائل، وتحصيل الفوائد، لكنَّه يغفل عن أخطرِ مَا يفسد عليه علمه وهو فساد القلب؛ لأنَّ العلم لا يثبت ولا يثمر إلَّا بقلبٍ سليم؛ لذلك ينبغي لطالب العلم أن يواظبَ على الطَّاعات، ويترك المعاصي، ويُطهِّر قلبه قبل تزيين لسانه بالعلم، ويكون ذلك التَّطهير (مِنْ كُلِّ سُوءٍ) والصِّفات المذمومة عند الله تعالى مِنَ الكبر والحسد، والرِّياء، وطلب الرِّياسة، والعلو، وحبِّ الظُّهور، وطلب الشُّهرة. وفي الحديث عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ"(١).

(١) رواه مسلم ح٢٥٦٤.

فإنَّ العلم إذا دَخَلَ قلبًا مريضًا أورثه كِبرًا وجدالًا وطَلَب دنيا، وأمَّا إذا دَخَلَ قلبًا طاهرًا نقيًّا أورثه خشيةً وتواضُعًا وعملاً صالحًا.

إنَّ النَّجاة يوم القيامة مرتبطةٌ بسلامة القلب كما أخبر الله تعالى بقوله: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾(١)، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾(٢).

ومِنَ الأمور التي أوصى بها النَّاظم في طهارة القلب: اجتناب الحقد الدَّفين، كما قال: (وَحِقْدٍ دَفِينٍ)؛ لأنَّ الحقد ليس مجرَّد خصومة عابرة، بل هو مرضٌ مقيمٌ في القلب، يشتعل كلَّما تذكَّر صاحبه مَن يكرهه، وقد يكون الإنسان ظاهره الصَّلاح، لكنَّه يحمل في داخله ضغينةٌ على فلان، أو غيظًا مِن تفوُّق غيره عليه، أو شماتةً في مَن أخطأ، وهذا هو (الدَّفِين) في القلب لا يراه النَّاس. وطالب العلم إذا امتلأ قلبه بالحقد أصبح قلبه لا يقبل النَّصيحة، ولا يُنصِفُ المخالف، وربَّما ردَّ الحقَّ لأجل الأشخاص.

---

(١) سورة الشعراء: ٨٨-٨٩.

(٢) سورة الشمس: ٩.

وبيَّن النَّاظم بعد ذلك – أيضًا - أنَّ مِنَ الأمور التي ينبغي الابتعاد عنها (الغِل) الذي هو الحِقد إذا تحرَّك، وتحوَّل إلى رغبة في الانتقام، فقال: (وَغِلٌّ كَظِيْمْ) أي ممتلئ غضبًا، لكنَّه لم يُخرجه.

وطالب العلم يُبتلى بمن يُخالفه، أو يُسيء إليه، أو يُجهل عليه، فإن لم يكن حليمًا، انقلب علمه إلى خصومات وجدالات.

وقد كان مِن دعاء أهل الإيمان الذي يدلُّ على سلامة صدورهم كما أخبر الله تعالى عنهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾[1]، وأنَّ مِن تمام نعيم الجنَّة: أن تُنزعَ الأحقاد مِنَ القلوب، فدلَّ على أنَّ الغلَّ مِن أعظم أسباب الشَّقاء في الدُّنيا، قال الله: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ۝٤٥ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝٤٦ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾[2].

---

(١) سورة الحشر: ١٠.

(٢) سورة الحجر: ٤٥-٤٧.

ثمَّ بيَّن النَّاظم – حفظه الله – خلاصة الطَّريق، وهو أن يختم الإنسان يومه بقلبٍ نظيف، فلا ينام إلَّا وقلبه سالمًا مِنَ الغلِّ والحقد، فقال:

وَبِتْ سَـالِمَ الصَّـدْرِ تُمْسِ بَهِيجًا وَتُصْـبِحُ فِينَـا بِقَلْبٍ سَـلِيمْ

فمن صفَّى قلبه مِنَ الغشِّ والحقد والحسد والبغضاء للمسلمين قبل نومه: نام مرتاحًا، واستيقظ منشرحًا؛ لأنَّ سلامة الصَّدر مِن أجلِّ الأخلاق، ومِن صفات أهل الإيمان، وأسباب راحة النَّفس وطمأنينة القلب، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾[1]،

وفي الحديث عَن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: "كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ، صَدُوقِ اللِّسَانِ"، قَالُوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ، نَعْرِفُهُ، فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ؟ قَالَ: "هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ، لَا إِثْمَ فِيهِ، وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ، وَلَا حَسَدَ"[2].

---

(١) سورة الحشر: ١٠.

(٢) رواه ابن ماجه ح٤٢١٦؛ وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم: ٩٤٨.

وطالب العلم يحتاج إلى قلبٍ سليم؛ لأنَّ العلم عبادة، والعبادة لا تصلح مع فساد القلب والباطن بالحسد والغِل والكِبر، فإذا امتلأ قلبه بالحسد والمنافسات المذمومة ضاع إخلاصه، وربما حمله ذلك على احتقار النَّاس أو كراهيَّة تفوُّق إخوانه؛ ولذلك كان السَّلف يعتنون بإصلاح قلوبهم، فعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى ابْنِ أَبِي دُجَانَةَ، وَهُوَ مَرِيضٌ، وَكَانَ وَجْهُهُ يَتَهَلَّلُ، فَقَالَ لَهُ: مَا لَكَ يَتَهَلَّلُ وَجْهُكَ؟ قَالَ: "مَا مِنْ عَمَلِ شَيْءٍ أَوْثَقَ عِنْدِي مِنَ اثْنَيْنِ: أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكُنْتُ لَا أَتَكَلَّمُ بِمَا لَا يَعْنِينِي، وَأَمَّا الْأُخْرَى: فَكَانَ قَلْبِي لِلْمُسْلِمِينَ سَلِيمًا"(١)، وقَدْ كَانَ أَبُو مُوْسَى صَوَّامًا، قَوَّامًا، رَبَّانِيّاً، زَاهِدًا، عَابِدًا، مِمَّنْ جَمَعَ العِلْمَ وَالعَمَلَ وَالجِهَادَ وَسَلاَمَةَ الصَّدْرِ، لَمْ تُغَيِّرْهُ الإِمَارَةُ، وَلاَ اغْتَرَّ بِالدُّنْيَا(٢)، وَعَنْ سُفْيَانَ بْنِ دِينَارٍ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي بَشِيرٍ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ عَلِيٍّ: أَخْبِرْنِي عَنْ أَعْمَالِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا؟ قَالَ: "كَانُوا يَعْمَلُونَ يَسِيرًا وَيُؤْجَرُونَ كَثِيرًا"، قَالَ: قُلْتُ: وَلِمَ ذَاكَ؟ قَالَ: "لِسَلَامَةِ صُدُورِهِمْ"(٣).

---

(١) الجامع في الحديث لابن وهب، تحقيق: د. مصطفىٰ حسن حسين محمد أبو الخير، دار ابن الجوزي، الرياض، ط١، ١٤١٦هـ، ص٤٣٥.

(٢) سير أعلام النبلاء، للذهبي، (٢/ ٣٩٦).

(٣) الزهد، لهَنَّاد بن السَّرِي، تحقيق: عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت، ط١، ١٤٠٦هـ، (٢/ ٦٠٠).

(٥١/٤٢) الوصيَّة بترك الحسد

وَلَا تَحْسَـــدَنَّ فَـإِنَّ الْحَسُـــودَ مَـــرِيضُ الْفُـــؤَادِ بَغِـــيضٌ أَثِـــيمْ

وفي هذا البيت يحذِّر شيخنا – حفظه الله – مِنَ الحسد الذي هو تمنِّي زوال النِّعمة عن الغير؛ لأنَّ الحاسد قلبه مريضٌ بالغلِّ والاعتراض وسوء الظَّنِّ، يعيشُ في تعبٍ دائم، وقلبه ممتلئ بالهمِّ والضِّيق، كلَّما رأى نعمة عند غيره، فيُصبح مكروهًا عند النَّاس، آثمًا عند الله تعالى، وقد قال ابن حبَّان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والحاسد لا تهدأ روحه، ولا يستريح بدنه، إلَّا عند رؤية زوال النِّعمة عن أخيه"(١).

والحسد بين طلَّاب العلم مِنَ الآفات الخطيرة التي تضرُّ بصفاء القلب وتعيق التَّحصيل العلمي؛ وقد ابتُلي بعض طلَّاب العلم بالتَّنافس المذموم، فإذا رأى أخاه قد نال قبولًا، أو حِفظًا، أو فَهمًا، أو ثناءً مِنَ النَّاس، ضاق صدره، وتمنَّى زوال تلك النِّعمة عنه، وهذا هو الحسد المحرَّم، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد يبتلى بعض المنتسبين إلى العلم وغيرهم بنوع مِنَ الحسد

(١) روضة العقلاء، لابن حبان، ص١٣٣.

لمن هداه الله بعلمٍ نافع أو عملٍ صالح، وهو خلق مذموم مطلقًا، وهو في هذا الموضع مِن أخلاق المغضوب عليهم"[(١)].

وقد جاءت الأدلَّة في الكتاب والسُّنَّة في النَّهي عن الحسد، ومنه قول الله تعالى في النَّهي عنه والاستعاذة مِن شرِّه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[(٢)]، وذمَّ الله تعالى التَّحاسد والاعتراض على فضله فقال: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾[(٣)]، قَالَ عبد الله ابن مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "لَا تُعَادُوا نِعَمَ اللَّهِ، قِيلَ لَهُ: وَمَنْ يُعَادِي نِعَمَ اللَّهِ؟ قَالَ: "الَّذِينَ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ"[(٤)]، ومِنَ السُّنَّة عَنْ أَنَسٍ

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، لابن تيمية، تحقيق: ناصر العقل، دار عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط٧، ١٤١٩هـ، (١/ ٨٣).

(٢) سورة الفلق: ١-٥.

(٣) سورة النساء: ٥٤.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، (٥/ ٢٥١).

بْن مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "لاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، وَلاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ"(١).

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: "الحسد مرضٌ مِن أمراض النَّفس وهو مرضٌ غالب، فلا يخلص منه إلَّا القليل مِنَ النَّاس؛ ولهذا يقال: مَا خلا جسدٌ مِن حسد، لكنَّ اللَّئيم يبديه والكريم يخفيه ... فمن وَجَدَ في نفسه حَسدًا لغيره فعليه أن يستعمل معه التَّقوى والصَّبر"(٢).

وطالب العلم أحوج إلى تطهير قلبه مِنَ الحسد؛ لأنَّ ميادين العلم والدَّعوة قد تفتح أبواب المنافسة: فهذا أكثر طلَّابًا، وذاك أكثر حِفظًا، وهذا له قبول، وذاك له انتشار، وآخر وفَّقه الله تعالى للتَّدريس أو التَّأليف أو الدَّعوة. وهنا يظهر صدق القلب؛ هل يفرح طالب العلم بنفع أخيه وازدهار الدَّعوة، أم يتمنَّى زوال ذلك عنه.

(١) رواه البخاري ح٦٠٦٥.

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (١٠/ ١٢٤).

(٥١/٤٤) الوصيَّة بغضِّ البصر

وَطَرْفَكَ فَاغْضُضْ عَنِ الْحُرُمَاتِ فَرُؤْيَتُهَا مُهْلِكٌ وَمُلِيمْ

يرشد شيخنا – حفظه الله – إلى حِفظ البصر عن النَّظر إلى مَا حرَّم الله تعالى؛ لأنَّ إطلاق النَّظر إلى المحرَّمات سببٌ للهلاك في الدِّين والقلب، وسببٌ للألم والحُزن والهمِّ، والحسرة والنَّدم في الدُّنيا والآخرة.

وقد جاء الأمر الصَّريح بغضِّ البصر ووجوبه على الرِّجال والنِّساء جميعًا، وبيَّن الله تعالى أنَّ ذلك أطهر للقلوب وأزكى للنُّفوس فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾[1]، وفي الحديث عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطُّرُقَاتِ"، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ مَا لَنَا بُدٌّ مِنْ مَجَالِسِنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ"، قَالُوا: وَمَا حَقُّهُ؟، قَالَ: "غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الْأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ

(١) سورة النور: ٣٠-٣١.

وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ"[1]. وليس غضُّ البصر خاصًّا بالطُّرقات والأسواق بل يشمل الهاتف وشبكات التَّواصل، فإنَّ كثيرًا مِنَ الفتن في هذا العصر تدخل على الإنسان مِن خلال عينيه وهو في بيته، وربما أغلق بابه وأطلق لنفسه النَّظر، ونسيَ أنَّ الله تعالى يراه.

وليعلم طالب العلم أنَّ العلمَ نورٌ، ونورُ الله تعالى لا يُؤتاه صاحبُ معصية، وقد كان الإمام الشَّافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول[2]:

شكوتُ إلى وكيعٍ سوءَ حفظي ... فأرشدَني إلى تركِ المعاصي

وقال اعلَمْ بأنَّ العلمَ فضلٌ ... وفضلُ اللهِ لا يؤتاه عاصِ

ومِن أعظم مَا يُطفئ نور العلم ويُكدِّر صفاء القلب إطلاقُ البصر فيما حرَّم الله تعالى، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "النَّظرُ داعيةٌ إلى فساد القلب"[3].

ولذلك فإنَّ غضَّ البصر يورثُ صفاء القلب، وقوَّة الحفظ، ولذَّة الطَّاعة ونور البصيرة، وسلامة الفِكر مِنَ التَّشتُّت، وأمَّا إطلاقُ البصر فإنَّه يُورث:

---

(١) رواه مسلم ح٢١٢١.

(٢) الداء والدواء، لابن القيم، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، خرج أحاديثه: زائد بن أحمد النشيري، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٩هـ، ص١٣٢.

(٣) تفسير ابن كثير، لابن كثير، (٦/ ٣٩).

وحشةً في القلب، وضعفًا في الحفظ، وقسوةً في النَّفس، وحرمانًا مِن بركة العلم.

فيا طالب العلم: إذا أردتَ الفتحَ في العلم، والرُّسوخَ في الفهم، والبركةَ في العُمر، فاحفظ عينك قبل كتابك، وراقب قلبك قبل لسانك، فإنَّ مَن حَفِظَ جوارحه حَفِظَ الله عليه دينه وعلمه، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفي غضِّ البصر عدَّة فوائد ... الفائدة الرَّابعة: أنَّه يفتح له طُرق العلم وأبوابه، ويسهِّل عليه أسبابه؛ وذلك بسبب نور القلب، فإنَّه إذا استنار ظهرت فيه حقائق المعلومات وانكشفت له بسرعة ونفذ مِن بعضها إلى بعض، ومَن أرسل بصره تكدَّر عليه قلبه وأظلم وانسد عليه باب العلم وطرقه"[1].

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين، لابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ، ص١٠٢.

(٥١/٤٥) الوصية بالمحافظة على الوقت

وَحَافِظْ عَلَى الْوَقْتِ فَهُوَ الْحَيَاةُ وَخَطِّطْ وَنَظِّمْ وَنَفِّذْ وَقِيمْ

هذا البيت يجمع أصلاً عظيمًا مِن أصول النَّجاح في الدِّين والدُّنيا، ويوصي به طالب العلم، وهو حِفظُ الوقت وُحسن إدارته؛ لأنَّ حياة الإنسان في حقيقتها هي مجموع أوقاته، فإذا ضاع الوقتُ ضاعت الحياة، يقول النَّاظم: (وَحَافِظْ عَلَى الْوَقْتِ فَهُوَ الْحَيَاةُ) أي احرص على أوقاتك أن تضيع في اللَّهو والغفلة والبطالة؛ فإنَّ الوقت هو رأس مال الإنسان، وعُمره الحقيقي.

وقد أقسمَ الله تعالى بالوقت في مواضع كثيرةٍ، ممَّا يدلُّ على عِظَمِ شأنه وأهمِّيَّته، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴾[2]، وقوله: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴾[3]، وفي الحديث عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِرَجُلٍ وَهُوَ يَعِظُهُ: "اغْتَنِمْ

(١) سورة العصر: ١-٢.

(٢) سورة الضحى: ١.

(٣) سورة الليل: ١.

خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هِرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاءَكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ"(١).

فالإنسان لا يملك أثمنَ مِن عُمره؛ ولذلك كان السَّلف أشدُّ النَّاس حرصًا على أوقاتهم مِن حرص النَّاس على أموالهم، يقول الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ابْنَ آدَمَ، إِنَّمَا أَنْتَ أَيَّامٌ، كُلَّمَا ذَهَبَ يَوْمٌ ذَهَبَ بَعْضُكَ"(٢)، وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إِضَاعَة الْوَقْت أَشد مِن الْمَوْت لِأَن إِضَاعَة الْوَقْت تقطعك عَن الله وَالدَّار الْآخِرَة"(٣).

وطالب العلم لا ينبغي له التَّفريط في وقته بحالٍ مِنَ الأحوال، بل يجب عليه أن يحافظ عليه، وأن ينظِّمه، وأن يُوليه رعايةً خاصَّةً، فيضعُ لنفسه برنامجًا ينفعه، وأن يحرص على اغتنام التَّحصيل وقت الفراغ والنَّشاط، يقول الإمام النَّووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وينبغي أن يكون حريصًا على التَّعليم، مواظبًا عليه في جميع أوقاته، ليلاً ونهارًا حضرًا وسفرًا، ولا يُذهبُ مِن أوقاته شيئًا في غير العلم

(١) رواه الحاكم في المستدرك ح٧٨٤٦؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته برقم ١٠٧١.

(٢) حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصبهاني، (٢/ ١٤٨).

(٣) الفوائد، لابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٣٩٣هـ، ص٣١.

إلَّا بِقَدر الضَّرورة لأكلٍ ونومٍ قَدْرًا لا بُدَّ منه، ونحوهما، كاستراحةٍ يسيرة لإزالة الملل وشبه ذلك مِنَ الضَّروريات"[(١)].

ثمَّ أرشدَ النَّاظمُ - حفظه الله - طالبَ العلم في هذا البيت إلى أسباب النَّجاح أو منهج النَّجاح العملي أو أركان الإدارة، فقال: (وَخَطِّطْ وَنَظِّمْ وَنَفِّذْ وَقِيمْ)، وهي أربعةٌ مُهمَّة:

أوَّلها: التَّخطيط الجيِّد: بأن يضع أهدافًا واضحةً لِمَا يريد إنجازه، فلا يعيش العشوائيَّة، وهكذا كان النَّبيُّ ﷺ يُخطِّط في أموره، كالتَّخطيط للهجرة، وترتيب الجيوش، وإرسال الدُّعاة وغير ذلك.

ثانيها: تنظيم الأعمال، وترتيب الأوقات، والبدء بالأهمِّ فالأهم، فحتَّى العبادات جاءت منظَّمة بأوقاتٍ محدَّدة، كالصَّلاة مثلاً، حيث يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴾[(٢)].

ثالثها: تنفيذ الخطط، فكثيرٌ مِنَ النَّاس يُحسنُ التَّخطيط لكنَّه لا يعمل، والله تعالى يقول: ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾[(٣)].

---

(١) المجموع شرح المهذب، للإمام النووي، (١/ ٣٧).

(٢) سورة النساء: ١٠٣.

(٣) سورة التوبة: ١٠٥.

رابعها: تقويم النَّفس ومراجعتها؛ حتى يسير المسلم على بصيرة وينتفع بعمره قبل فواته. فيسأل نفسه: مَاذا أنجزت؟ مَا الأخطاء؟ مَا الذي يحتاج إلى إصلاح؟ وهذا مِن محاسبة النَّفس، وقد كان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: "حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا"(١).

(١) تفسير ابن كثير، لابن كثير، (١/ ٤٨).

(٥١/٤٦) الوصيَّة بترك مَا لا ينفع

وَلَا تُشْغِلِ النَّفْسَ بِالْمُلْهِيَاتِ وَمَا لَيْسَ يَعْنِي فَأَنْتَ حَكِيمْ

يرشدُ شيخنا – حفظه الله – في هذا البيت إلى أمرين عظيمين هما: حِفظ الوقت والقلب مِن كلِّ مَا يُلهي ويضر، والاشتغال بما ينفع في الدِّين والدُّنيا.

فالعاقل يصون قلبه ووقته عن الأمور التي تُلهيه عن طاعة الله تعالى، أو تُشغله بما لا فائدة فيه مِن قولٍ أو فعلٍ أو نَظَرٍ أو سماع، وأنَّ مِن علامات الحكمة أن يترك الإنسان مَا لا ينفعه في دينه ودنياه. وهذا المعنى جاءت به نصوص كثيرة مِن الكتاب والسُّنَّة وكلام السَّلف.

ففي كتاب الله تعالى حيث امتدح الله المؤمنين بإعراضهم عن اللَّغو الذي هو كلُّ قولٍ أو فعلٍ لا فائدة فيه، أو يصدَّ عن الخير، فقال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾[1]، وأخبر أيضًا أنَّ مِن صفاتهم أنَّهم لا يقفون مع الباطل والعبث، بل يترفَّعون عنه، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ

(١) سورة المؤمنون: ٣.

وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴾[1]، فالمؤمن لا يعيش للعبث واللَّهو، بل لحياةٍ نافعة وعبادةٍ صالحة، وقد جاء في الحديث في الحث على ترك فضول الكلام والأعمال والانشغال بما لا فائدة فيه، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ"[2].

وهكذا كان السَّلف يزِنُون أقوالهم وأعمالهم بميزان النَّفع، ويجعلون أوقاتهم فيما يقرِّبهم إلى الله تعالى وينفعهم في معاشهم ومعادهم، قال عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا "إِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَرَى الرَّجُلَ، فَارِغًا لَا فِي عَمِلِ دُنْيَا وَلَا آخِرَةٍ"[3]، وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: "مِنْ عَلَامَةِ إِعْرَاضِ اللَّهِ وَجَلَّ عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَجْعَلَ شُغْلَهُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ"[4].

وهكذا طالبُ العلم عليه أن لا يُشغل نفسه بالملهيات والجوالات والتَّنقُّل بين مواقع التَّواصل الاجتماعي التي تسرق الأوقات وتُشتِّت الذِّهن،

---

(١) سورة الفرقان: ٧٢.

(٢) رواه الترمذي ح٢٣١٧؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته برقم ٥٩١١.

(٣) أخرجه الطبري في المعجم الكبير برقم ٨٥٣٨.

(٤) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لابن عبدالبر، تحقيق: مصطفىٰ العلوي ومحمد البكري، الناشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٣٨٧هـ، (٩/ ٢٠٠).

وكذلك ينبغي عليه أن لا ينشغل بما لا يعنيه، ولا يتدخَّل فيما لا يُحسنه، فقد يكون ذلك سببًا في حرمانه مِن كثيرٍ مِنَ الخير؛ ولذلك فإنَّه يجب على طالب العلم أن يبتعد عن العلائق التي تكون سببًا لصرفه عن العلم، وأن يبذل الجهد، وأن يقوِّي نفسه بالجدِّ والتَّحصيل ليستفيد، يقول ابن جماعة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "على طالب العلم أن يبادر شبابه وأوقات عمره إلى التَّحصيل، ولا يغتر بخدع التَّسويف والتَّأميل، فإنَّ كلَّ ساعة تمضي مِن عُمره لا بدل لها، ولا عِوض عنها، ويقطع مَا يقدر عليه مِنَ العلائق الشَّاغلة، والعوائق المانعة عن تمام الطَّلب، وبذل الاجتهاد، وقوَّة الجدِّ في التَّحصيل؛ فإنَّها كقواطع الطَّريق"[1].

(١) تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة، ص٧٣.

(٥١/٤٧) الوصيَّة بالإكثار مِنَ الذِّكر وتلاوة القرآن الكريم

وَأَكْثِرْ مِنَ الذِّكْرِ فَالذِّكْرُ حِصْـــنٌ وَرَتِّلْ - هُدِيتَ - الْقُرَانَ الْكَرِيمْ

جَمَعَ النَّاظم في هذا البيت بين أصلين عظيمين مِن أسباب صلاح القلب وثبات العبد: الإكثار مِن ذِكرِ الله تعالى، والعناية بتلاوة القرآن الكريم وترتيله، فإذا اجتمع الذِّكر والقرآن في قلب العبد؛ قَوِيَ إيمانه، واطمأنَّ قلبه، واستقامت جوارحه.

فالأوَّل: الإكثار مِن ذِكرِ الله تعالى كما في قوله: (وَأَكْثِرْ مِنَ الذِّكْرِ)، ويقصد بذلك أن يلزم كَثْرة ذِكر الله بالقلب واللِّسان مِنَ التَّسبيح، والتَّحميد، والتَّهليل، والتَّكبير، والاستغفار، وقراءة الأذكار المشروعة، يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴾[1]، وهو سببُ اطمئنان القلوب كما قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ

(١) سورة الأحزاب: ٤١.

ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾[1]، يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ "الذِّكرُ للقلب مثل الماء للسَّمك، فكيف يكون حال السَّمك إذا فارق الماء؟"[2].

وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ"، قَالُوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: "الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا، وَالذَّاكِرَاتُ"[3].

(فَالذِّكْرُ حِصْنٌ): يحفظُ العبدَ ويحميه مِنَ الشَّيطان، ومِنَ الغفلة، ومِن قسوة القلب، ومِن كثيرٍ مِنَ الشُّرور والفتن، فما فشَت بين النَّاس مِنَ الأمراض النَّفسيَّة، ومِنَ الإصابة بالعين والمسِّ والسِّحر، ومِنَ الضِّيق والاكتئاب إلَّا بسبب الغفلة والتَّقصير في ذِكر الله تعالى، قال الله: ﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا ﴾[4]؛ ولذلك أَمَرَ النَّبيُّ ﷺ بذكر الله تعالى

---

(١) سورة الرعد: ٢٨.

(٢) الوابل الصَّيب مِنَ الكلم الطيب، لابن القيم، تحقيق: سيد إبراهيم، دار الحديث، القاهرة، ط٣، ١٩٩٩م، ص٤٢.

(٣) رواه مسلم ح٢٦٧٦.

(٤) سورة طه: ١٢٤.

فقال: "وَآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللَّهَ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ العَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذَلِكَ العَبْدُ لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ"(١)، يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلِّقًا على هذه الحديث: "فلو لم يكن في الذِّكر إلَّا هذه الخصلة الواحدة لكان حقيقًا بالعبد أن لا يفتر لسانه مِن ذِكر الله تعالى، وأن لا يزال لهجًا بذكره، فإنَّه لا يُحرِزُ نفسَه مِن عدوِّه إلَّا بالذِّكر، ولا يدخل عليه العدو إلَّا مِن باب الغفلة، فهو يرصده، فإذا غفل وَثَبَ عليه وافترسه"(٢).

وطلب العلم الشَّرعي، والانشغال به مِن أنواع الذِّكر، كما فسَّر جَمعٌ مِن أهل العلم مجالس الذِّكر بمجالس العلم، ومِن ذلك قول ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ويُطلق ذكر الله أيضًا ويُراد به المواظبة على العمل بما أوجبه، أو ندب إليه كتلاوة القرآن، وقراءة الحديث، ومدارسة العلم، والتَّنفُّل بالصَّلاة"(٣).

---

(١) رواه الترمذي ح٢٨٦٣؛ وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي ح٢٨٦٣.

(٢) الوابل الصَّيب، لابن القيم، ص٣٦.

(٣) فتح الباري، لابن حجر، (١١/ ٢٠٩).

وأمَّا الثَّاني: مِن أسباب صلاح القلب وثبات العبد: العناية بتلاوة القرآن الكريم وترتيله، كما في قول النَّاظم: (وَرَتِّلْ - هُدِيتَ - الْقُرَانَ الْكَرِيمْ) أي اقرأ القرآن الكريم بتؤدة وتدبُّر وتحسين صوتٍ، مع مراعاة أحكام التِّلاوة، لا بسرعةٍ تمنع الفهم والخشوع، يقول الله تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾[1] أي: اقرأهُ على تمهُّلٍ، فإنَّه يكونُ عونًا على فَهم القرآن وتدبُّره[2]، وقال الله: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[3]، وهذا هو المقصود مِن قراءته، لا مُجرَّدُ سردِ حروفه دون فَهمٍ أو تَعقُّلٍ، قال ابْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "لَا تَنْثُرُوهُ نَثْرَ الدَّقَلِ، وَلَا تَهْذُّوهُ هَذَّ الشِّعْرِ، قِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ، وَلَا يَكُنْ هَمُّ أَحَدِكُمْ آخِرَ السُّورَةِ"[4]. وفي الحديث عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ

---

(١) سورة المزمل: ٤.

(٢) تفسير ابن كثير، لابن كثير، (٨/ ٢٦١).

(٣) سورة ص: ٢٩.

(٤) تفسير البغوي، للبغوي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ، (٥/ ١٦٦).

الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ، لَهُ أَجْرَانِ"(١)، وعَنْ قَتَادَةُ قَالَ: سَأَلْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ عَنْ قِرَاءَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: "كَانَ يَمُدُّ مَدًّا"(٢).

ويتجلَّى حال طالب العلم مع القرآن الكريم في: الحِفظ، والمداومة على الوِرد اليومي، والتَّدبُّر، ويتخلَّق بأخلاقه ويطبِّقه عمليًّا في سلوكه وتواضعه ودعوته ليكون قدوةً حسنة. فمِنَ المؤسف أن تجدَ بعض طلَّاب العلم لا ينظرون في كتاب الله تعالى ولا يقرأون فيه، ثمَّ تجد عندهم مكتباتٌ علميَّة ويتجوَّلون في أفيائها، وهم مقصِّرون مع كتاب الله تعالى.

(١) رواه مسلم ح٧٩٨.

(٢) رواه البخاري ح٥٠٤٥.

(٥١/٤٨) الوصيَّة بتهذيب النَّفس

وَكُــنْ عَابِــدًا زَاهِــدًا فِي الْحُطَــامِ عَزِيــزًا شَرِيفًــا تُغِــيظُ اللَّئِــيمْ

وفي هذا البيت، يوصي شيخنا – حفظه الله – طالب العلم بوصيَّةٍ جامعة في تهذيب النَّفس، تجمع بين: تحقيق العبوديَّة لله تعالى، والزُّهد في الدُّنيا، والتَّحلِّي بالعزَّة والشَّرف والكرامة.

قوله: (وَكُنْ عَابِدًا): أي كُن كثير العبادة لله تعالى، مُخلصًا له، قائمًا بأوامره، مُجتنبًا نواهيه، مُحافظًا على الفرائض والنَّوافل، فالعبد الحقيقي هو الذي ذلَّ لله وحده، ولم يذلَّ لغيره، يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[2]، وهكذا طالب العلم يجمع بين العلم والعبادة؛ فقد مَدَحَ الله تعالى عباده الذين يجمعون بين قوَّة العلم وقوَّة العبادة فقال: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[3]، قال ابن كثير

---

(١) سورة الذاريات: ٥٦.

(٢) سورة البقرة: ٢١.

(٣) سورة ص٤٥.

رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يعني بذلك العمل الصَّالح والعلم النَّافع، والقوَّة في العبادة والبصيرة النَّافذة"(١).

وقوله: (زَاهِدًا فِي الْحُطَامِ): أي كُن زاهدًا في متاع الدُّنيا الزَّائل؛ وسُمِّي حُطامًا لأنَّه سريع الانكسار والفناء. والمقصود بالزُّهد: ألَّا تتعلَّق الدُّنيا بالقلب، لا ترك المال مُطلقًا، بل يكون المال في اليد لا في القلب، يقول الله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾(٢)، وفي الحديث عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا أَنَا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي اللَّهُ وَأَحَبَّنِي النَّاسُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللَّهُ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ"(٣)، وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:

---

(١) تفسير ابن كثير، لابن كثير، (٧/ ٦٧).

(٢) سورة الحديد: ٢٠.

(٣) رواه ابن ماجه ح٤١٠٢، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته برقم ٩١٧.

أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَنْكِبِي، فَقَالَ: "كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ"(١).

وحقيقة الزُّهد: الزُّهد بالحرام، والابتعاد عن حماه، بالكفِّ عن المشتبهات وعن التَّطلُّع إلى مَا في أيدي النَّاس(٢)، وعن محمَّد بن الحسن الشَّيباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمَّا قِيلَ له: "هَلَّا صَنَعْتَ كِتَابًا فِي الزُّهْدِ، قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ، قِيلَ: فَمَا ذَلِكَ الْكِتَابُ؟ قَالَ: هُوَ كِتَابُ الْبُيُوعِ"(٣)، ويقصد أنَّ الزَّاهد مَن يتحرَّز عن الشُّبهات، والمكروهات، في التِّجارات، وكذلك في سائر المعاملات والحِرَف(٤).

وقوله: (عَزِيزًا شَرِيفًا تُغِيظُ اللَّئِيمْ): أي كُن صاحب عزَّةٍ وكرامةٍ وشرف نفسٍ، ولا تتكلَّف مَا يهينك، فإنَّ المؤمن عزيزٌ بإيمانه وطاعته، فلا يبيع دينه لأجل المال أو الجاه؛ لأنَّ العزَّة الحقيقيَّة في طاعة الله تعالى، لا في متاع الدُّنيا

---

(١) رواه البخاري ح٦٤١٦.

(٢) حلية طالب العلم، لبكر أبو زيد، ص١٤٧.

(٣) الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي وهو شرح مختصر المزني، لأبي الحسن علي بن محمد، الشهير بالماوردي، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٩هـ، (٥/ ١١).

(٤) حلية طالب العلم، لبكر أبو زيد، ص١٤٧.

الزَّائل، وبهذا فإنَّ اللَّئيم صاحب النَّفس الدَّنيئة يغتاظ إذا رأى المؤمن عفيفًا عزيز النَّفس؛ لأنَّه لا يستطيع إذلاله أو التَّحكُّم فيه، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في وصف المؤمنين: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2]، وفي الحديث عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ"[3].

(١) سورة المنافقون: ٨.

(٢) سورة المائدة: ٥٤.

(٣) رواه أحمد ح٢٣٤٤٤، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته برقم ٧٧٩٧.

(٥١/٤٩) الوصيَّة بمحاسبة النَّفس ومخالفة الهوى

وَحَاسِــبْ لِنَفْسِــكَ لَا لَا تَدَعْهَا تُطِيعُ هَوَاهَـا فَتَصْــلَى الْجَحِيمْ

يوصي النَّاظم – حفظه الله - طالب العلم أن يُحاسبَ نفسه محاسبةً دائمة، وألَّا يتركها تتبع أهواءها وشهواتها بلا ضابط؛ لأنَّ اتِّباع الهوى يقود إلى الهلاك والعذاب.

وهذا البيت يقرِّر قاعدةً عظيمة في السُّلوك الإسلامي وهو: أنَّ النَّفس تميل للرَّاحة والشَّهوة، والشَّرع يدعو للمجاهدة والمحاسبة، ومَن ترك نفسه بلا حساب قاده الهوى إلى الهلاك؛ لذلك كان مِن أهم علامات الاستقامة: مجاهدة النَّفس ومحاسبتها ومخالفة الهوى. وجاءت الأدلة مِنَ الكتاب والسُّنَّة على بيان ذلك كلِّه:

أوَّلًا: محاسبة النَّفس: قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾[1]، وفي الحديث عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى

(١) سورة الحشر: ١٨.

اللهِ"[1]. فليحاسِب كل إنسان نفسه على مَا قدَّم مِن عملٍ ليوم القيامة، يقول عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، فَإِنَّهُ أَهْوَنُ - أَوْ قَالَ: أَيْسَرُ - لِحِسَابِكُمْ، وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا، وَتَجَهَّزُوا لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ، "يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ"[2]"[3]، وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: "إِنَّ الْعَبْدَ لَا يَزَالُ بِخَيْرٍ مَا كَانَ لَهُ وَاعِظٌ مِنْ نَفْسِهِ وَكَانَتِ الْمُحَاسَبَةُ مِنْ هَمِّهِ"[4].

فينبغي لطالب العلم أن يُحاسب نفسه ويوبِّخها ويُراجع نيَّته، يقول الإمام الذَّهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "يَنْبَغِي لِلْعَالِمِ أَنَّ يَتَكَلَّمَ بِنِيَّةٍ وَحُسْنِ قَصْدٍ، فَإِنْ أَعْجَبَهُ كَلاَمُهُ، فَلْيَصْمُتْ، فَإِنْ أَعْجَبَهُ الصَّمْتُ، فَلْيَنْطِقْ، وَلاَ يَفْتُرْ عَنْ مُحَاسَبَةِ نَفْسِهِ، فَإِنَّهَا تُحِبُّ الظُّهُوْرَ وَالثَّنَاءَ"[5].

---

(١) رواه الترمذي ح٢٤٥٩، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير وزيادته برقم ٤٣٠٥.

(٢) سورة الحاقة: ١٨.

(٣) الزهد والرقائق، لابن المبارك، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت، ص١٠٣.

(٤) حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصبهاني، (٢/ ١٤٥).

(٥) سير أعلام النبلاء، للذهبي، (٤/ ٤٩٤).

ثانيًا: ذم اتِّباع الهوى: قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(١)، وكان النَّبيُّ ﷺ يتعوَّذ بالله تعالى مِن اتِّباع الهوى ويقول: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ مُنْكَرَاتِ الأَخْلَاقِ، وَالأَعْمَالِ وَالأَهْوَاءِ"(٢).

فليحذر طالب العلم وغيره مِن اتِّباع الهوى والبحث عن الرُّخص المخالفة للشَّرع والفتاوى الشَّاذَّة، وزلَّات العلماء، ولوي أعناق النُّصوص مِن أجل ذلك، يقول عَلِيُّ بن أَبِي طَالِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَيْكُمُ اثْنَتَانِ: طُولُ الْأَمَلِ، وَاتِّبَاعُ الْهَوَى، فَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ، وَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ"(٣)، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَحِمَهُ اللَّهُ: "لَا تَكُنْ مِمَّنْ يَتَّبِعُ الْحَقَّ إِذَا وَافَقَ هَوَاهُ، وَيُخَالِفُهُ إِذَا خَالَفَ هَوَاهُ، فَإِذَا أَنْتَ لَا تُثَابُ عَلَى مَا اتَّبَعْته مِنَ الْحَقِّ، وَتُعَاقَبُ عَلَى مَا خَالَفْته"(٤).

---

(١) سورة ص: ٢٦.

(٢) رواه الترمذي ح٣٥٩١، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته برقم

(٣) فضائل الصحابة، للإمام أحمد، تحقيق: د. وصي الله محمد عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ، (١/ ٥٣٠).

(٤) مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (١٠/ ٤٨٠).

وقد بيَّن الله تعالى أنَّ مجاهدة النَّفس ومخالفة هواها ليست خسارة ولا حرمانًا، بل هي طريق الفلاح والنَّجاة، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[1]، فكلَّما دعتك نفسك إلى قولٍ أو فعلٍ يُخالِف الحقَّ، فتذكَّر مقامك بين يدي الله تعالى، وتذكَّر هذا الوعد الكريم.

وإنَّ مِن أنفع مَا يعين على محاسبة النَّفس ومخالفة الهوى: تذكُّر الموت والوقوف بين يدي الله تعالى، وكثرة الدُّعاء، ومجالسة الصَّالحين، وقراءة سيرة السَّلف، وقلَّة فضول الكلام والنَّظر والمخالطة، ومبادرة النَّفس إلى التَّوبة عند التَّقصير.

(١) سورة النازعات: ٤٠-٤١.

(٥١/٥٠) الوصيَّة بالاستمرار على مجالس الذِّكر

وَدَاوِمْ عَـلَى مَجْـلِسِ الذِّكْـرِ دَوْمًـا تُجَـلِّيْ فُـؤَادَكَ مِـنْ كُـلِّ غَـيمْ

يحثُّ شيخنا – حفظه الله – على المواظبة والاستمرار على حضور مجالس الذِّكر، مثل: حلقات تعليم القرآن الكريم، وحِلَقُ العلم، والمواعظ وغيرها؛ لأنَّ هذه المجالس تُنقِّي القلب وتزيل عنه مَا يعتريه مِن ظُلمة الغفلة والذُّنوب والهموم، كما يزول الغيم عن السَّماء فيظهر صفاؤها.

وقد جاء الأمر بذكر الله تعالى، فقال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴾[1]، وقال ﷻ حاثًّا على ملازمة ومداومة مجالس الصَّالحين وأهل الذِّكر، ومحذِّرًا مِن مجالس الغافلين: ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴾[2]، وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ

---

(١) سورة الأحزاب: ٤١-٤٢.

(٢) سورة الكهف: ٢٨.

اللهِ ﷺ: "وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ"(١).

فالمداومة على مجالس الذِّكر ليست نافلة عابرة، بل هي غذاءٌ للقلب، وعلاجٌ للغفلة، وسببٌ للسَّكينة، وطريقٌ لزيادة الإيمان، وفي الحديث عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لاَ يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ"(٢).

وإنَّ الذِّكر ومجالسه هي أعظم مَا يجلِّي هذا الغيم مِنَ الغفلة، والاستمرار عليها شرطٌ لدوام صفاء القلب، عن الْحَسَنِ البَصري رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: "تَفَقَّدُوا الْحَلَاوَةَ فِي ثَلَاثٍ: فِي الصَّلَاةِ، وَفِي الْقُرْآنِ، وَفِي الذِّكْرِ، فَإِنْ وَجَدْتُمُوهَا فَامْضُوا وَأَبْشِرُوا، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوهَا فَاعْلَمْ أَنَّ بَابَكَ مُغْلَقٌ"(٣)، وقال أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ جِلَاءً، وَإِنَّ جِلَاءَ الْقُلُوبِ ذِكْرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ"(٤).

---

(١) رواه مسلم ح٢٦٩٩.

(٢) رواه البخاري ح٦٤٠٧.

(٣) حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصبهاني، (٦/ ١٧١).

(٤) شعب الإيمان، للبيهقي، (٢/ ٦٣).

(٥١/٥١) الوصيَّة بالتَّوبة الصَّادقة مع الاعتراف بالتَّقصير

وَتُبْ دَائِمًا مِنْ جَمِيعِ الذُّنُوبِ مُقِرًّا بِتَقْصِيرِكَ الْمُسْتَدِيمْ

يختم شيخنا – حفظه الله – هذه الوصايا الجليلة بهذا البيت الذي يجمع أصلين عظيمين هما: دوام التَّوبة، فلا يخلو العبد مِن ذَنبٍ أو تقصيرٍ إلَّا بالتَّوبة المستمرة، وكسر النَّفس وعدم العُجب؛ بأن يرى الإنسان نفسه دائمًا مقصِّرًا أمام الله تعالى. وباجتماع هذه الأصلين يسلم القلب مِنَ الكِبر، وتبقى الرُّوح متَّصلة بالله تعالى، ويستمر العبد في السَّير إلى الله بلا غرور.

فقوله: (وَتُبْ دَائِمًا مِنْ جَمِيعِ الذُّنُوبِ): أي لا تفارق التَّوبة في أيِّ حال، فكلَّما وقع ذنبٌ فبادر بالرُّجوع إلى الله، وقد أمر الله تعالى بالتَّوبة، ممَّا يدلُّ على أنَّها عبادة مستمرَّة لا تنقطع فقال: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1]، وقال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[2]، وقد كان النَّبيُّ ﷺ كثير التَّوبة إلى الله مع أنَّه مغفورٌ له مَا

(١) سورة النور: ٣١.

(٢) سورة البقرة: ٢٢٢.

تقدَّم مِن ذنبه ومَا تأخَّر، ولكنَّه يُعلِّم الأُمَّة دوام التَّوبة، فقال ﷺ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللهِ، فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ"(١)، فلا يوجد أحدٌ يخلو مِنَ الذُّنوب، ولكنَّ التَّقيَّ الصَّالح هو مَن يجتهد في الابتعاد عن المعاصي.

وقوله: (مُقِرًّا بِتَقْصِيرِكَ الْمُسْتَدِيمْ) ومعترفًا أنَّك مهما اجتهدت فإنَّك لم تؤدِّ حقَّ الله تعالى كما ينبغي. والاعتراف بالتَّقصير يدلُّ على خُلُقٍ عظيم وهو عدم الاغترار بالطَّاعة، ورؤية النَّفس دائمًا مقصِّرةً أمام حقِّ الله تعالى. وهذا مِن علامات صدق العبد مع ربِّه، وقد كان مِن دعاء النَّبيِّ ﷺ في سيِّد الاستغفار حيث قَالَ: "مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ أَوْ حِينَ يُمْسِي: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ بِنِعْمَتِكَ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ أَوْ مِنْ لَيْلَتِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ"(٢).

وينبغي على طالب العلم أن يجاهد نفسه في البعد عن المعاصي وأسبابها، فإنَّ الوقاية منها مِن أسباب الثَّبات على طريق العلم والعمل؛ لأنَّ العلم الشَّرعي

---

(١) رواه مسلم ح٢٧٠٢.

(٢) رواه أبو داود ح٥٠٧٠، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته برقم ٦٤٢٤.

نورٌ يقذفه الله تعالى في القلب، وهذا النُّور يحتاج إلى قلبٍ طاهرٍ عامرٍ بتقوى الله.

وإذا وقع طالب العلم في ذنبٍ، فلا يفتح للشَّيطان عليه باب اليأس، بل يبادر إلى التَّوبة الصَّادقة، ويُكثر مِنَ الاستغفار والأعمال الصَّالحة، ويجاهد نفسه حتى يلقى الله تعالى، فإنَّ الله يُحبُّ التَّوابين ويُحبُّ المتطهِّرين.

مسألة: لماذا ختم شيخنا – حفظه الله - وصاياه لطالب العلم بالتَّوبة والاعتراف بالتَّقصير؟

إنَّ مِن أجمل مَا ختم به شيخنا – حفظه الله - وصاياه لطالب العلم أن ختمها بالتَّوبة والاستغفار، والاعتراف بالتَّقصير، وفي ذلك فوائد عظيمة منها:

١- أنَّ العبد مهما بلغ في العلم والعمل فإنَّه لا يخلو مِن تقصير، فالكمال لله وحده. والمؤمن يرى نفسه دائمًا مقصِّرًا؛ ولذلك كان الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ والصَّالحون يُكثرون مِن الاستغفار مع علوِّ منزلتهم.

٢- أنَّ العلم الحقيقي يُورث صاحبه التَّواضع لا العُجب، فمِن علامات العلم النَّافع أن يزداد صاحبه معرفةً بعيوب نفسه، وخوفًا مِن ربِّه، وافتقارًا إليه، لا أن يرى نفسه قد بلغ الغاية.

٣- أنَّ التَّوبة ملازمة لطالب العلم في جميع أحواله، فهو يجاهد نفسه على الطَّاعة، ولم يُصر على الذَّنب؛ لأنَّ الذُّنوب مِن أعظم أسباب حرمان بركة العلم.

٤- أنَّ خاتمة الأعمال بالاستغفار مِن هدي الكتاب والسُّنَّة، فقد أَمَرَ الله تعالى نبيَّه ﷺ بعد إتمام أعظم الأعمال أن يُكثِر مِنَ التَّسبيح والاستغفار فقال: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾[1]، وكان النَّبيُّ ﷺ إذا سلَّم مِنَ الصَّلاة استغفر ثلاثًا، مع أنَّ الصَّلاة مِن أجلِّ العبادات.

(١) سورة الفتح: ١-٣.

الخاتمة

وَصَـــلِّ عَلَى المُصْـــطَفَى يَا إِلَهِي وَسَـــلِّم وَلِيْ فَـاغْفِرَنْ يَـا رَحِيمْ

وهو ختامُ كثيرٍ من المنظومات العلميَّة، وفيه جَمعٌ بين الصَّلاة والسَّلام على النَّبيِّ ﷺ، والدُّعاء وطلب المغفرة.

قوله: (وَصَلِّ عَلَى المُصْطَفَى): أي: صلِّ يا الله على النَّبيِّ ﷺ، وهو المصطفى المختار للرِّسالة والنُّبوَّة، (وَسَلِّم) سلامًا تامًّا مِن كلِّ آفةٍ ونقصٍ، في حياته وبعد مماته. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾[1].

(وَلِيْ فَاغْفِرَنْ يَا رَحِيمْ): أي واغفر لي ذنوبي يا الله، قال الله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[2]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾[3]، وطلب المغفرة

---

(١) سورة الأحزاب: ٥٦.

(٢) سورة المؤمنون: ١١٨.

(٣) سورة الأعراف: ٢٣.

هنا ختمٌ مناسب بعد العمل أو طلب العلم، فهو ختامٌ تربوي وإيماني يربط العلم بالعمل، والعبادة بالتَّوبة.

وبعد: فهذا آخر مَا يسَّره الله تعالى مِنَ التَّعليق على هذه المنظومة المباركة، التي جمع فيها ناظمها – حفظه الله – جملةً مِنَ الوصايا الجامعة، والآداب النَّافعة، التي لا غنى لطالب العلم عنها في سَيْرِهِ إلى الله تعالى.

وليس المقصود مِن هذه الوصايا أن تُحفظ ألفاظها فحسب، بل أن تُتَرجم إلى واقعٍ عملي، وسلوكٍ يومي، وأخلاقٍ ظاهرة، فإنَّ العلم إن لم يُثمِر خشيةً لله تعالى، وتواضعًا لعباده، وحُسنَ عملٍ بما عُلِمَ، كان حُجَّةً على صاحبه لا له.

وجزى الله شيخنا النَّاظم صالح بن محمد باكرمان خير الجزاء على مَا بذله مِن خدمةٍ للعلم وأهله، وأن يبارك في علمه وعمله وعمره، وأن ينفع به الإسلام والمسلمين، وأن يجعل هذه الوصايا المباركة في ميزان حسناته يوم يلقى ربَّه.

وأشكر الإخوة القائمين على مسجد علي بن أبي طالب على عنايتهم بمجالس العلم، وحرصهم على إقامة الدُّروس ونشر السُّنَّة، فنسأل الله تعالى أن يبارك في جهودهم، وأن يجعل مَا يقدِّمونه في ميزان حسناتهم.

وصلى الله وسلَّم وبارك على نبيِّنا محمَّد، وعلى آله وصحبه أجمعين

فهرس

تقديم النَّاظم ١

مقدِّمة ٢

عِقد الدُّرر في النَّصائح الغرر ٥

شرح المقدِّمة ٨

(٥١/١) الوصيَّة بتقوى الله تعالى ١٤

(٥١/٢) الوصيَّة بالإخلاص وسلامة القصد ١٧

(٥١/٣) الوصيَّة بالحذر مِنَ الرِّياء ٢٠

(٥١/٤) الوصيَّة بمراقبة الله تعالى ٢٣

(٥١/٥) الوصيَّة بالتَّحذير مِنَ العُجب والغُرور بالنَّفس ٢٥

(٥١/٦) الوصيَّة بالاهتمام بطلب العلم ٢٨

(٥١/٧) الوصيَّة بالعناية بحفظ الكتاب والسُّنَّة ٣٥

(٥١/٨) الوصيَّة بحفظِ المتون ٣٩

(٥١/٩) الوصيَّة بحُسنِ الفَهم ٤٢

(٥١/١٠) الوصيَّة بحُسنِ السُّؤال ٤٥

(٥١/١١) الوصيَّة بالتَّدرُّج في طلب العلم وعدم العجلة في تحصيله ٤٩

(٥١/١٢) الوصيَّة بلزوم الصَّبر على طلب العلم ٥٢

(٥١/١٣) الوصيَّة بأدب طالب العلم مع شيخه ومعلِّمه ٥٦
(٥١/١٤) الوصيَّة بالعمل بالعلم ٦١
(٥١/١٥) الوصيَّة بالأدب والسُّلوك الجميل مع النَّاس ٦٥
(٥١/١٦) الوصيَّة بحُسنِ السَّمت ٦٧
(٥١/١٧) الوصيَّة بالتزام الرِّفق في القول ٧٠
(٥١/١٨) الوصيَّة بالتَّأدُّب مع النَّاس في كلِّ حال ٧٢
(٥١/١٩) الوصيَّة برِقَّة الطَّبع ٧٥
(٥١/٢٠) الوصيَّة بالسَّكينة والوقار ٧٧
(٥١/٢١) الوصيَّة بخفَّة المزاح ٧٩
(٥١/٢٢) الوصيَّة بعفَّة اللِّسان ٨١
(٥١/٢٣) الوصيَّة بطلاقة الوجه ٨٤
(٥١/٢٤) الوصيَّة بأن يكون سلفيًّا على الجادَّة ٨٦
(٥١/٢٥) الوصيَّة بالوسطيَّة والاعتدال ٩٠
(٥١/٢٦) الوصيَّة باجتناب محدثات الأمور ٩٥
(٥١/٢٧) الوصيَّة باجتناب سُبُل الغُواة وخطوات الشَّيطان ٩٧
(٥١/٢٨) الوصيَّة بالابتعاد عن فتنتي الشُّبُهات والشَّهوات ١٠٠
(٥١/٢٩) الوصيَّة بخُلقِ التَّواضع ١٠٥
(٥١/٣٠) الوصيَّة ببِرِّ الوالدين ١٠٨

(٥١/٣١) الوصيَّة بصلة الرَّحم ١١١
(٥١/٣٢) الوصيَّة بالصَّديق الحميم في الطَّلب ١١٤
(٥١/٣٣) الوصيَّة بتعليم مَا تعلَّمه طالب العلم ١١٦
(٥١/٣٤) الوصيَّة بالدَّعوة إلى الله تعالى ١١٩
(٥١/٣٥) الوصيَّة بالاستقامة على الطَّاعة ١٢٥
(٥١/٣٦) الوصيَّة بأن يكون قدوةً لغيره ١٢٩
(٥١/٣٧) الوصيَّة بترك التَّعصُّب المذموم ١٣٣
(٥١/٣٨) الوصيَّة بالتَّعاون على البِرِّ مع الدُّعاة ١٣٦
(٥١/٣٩) الوصيَّة بنُصح الأخ لأخيه بالرِّفق ١٣٩
(٥١/٤٠) الوصيَّة بترك المراء والجدال ١٤١
(٥١/٤١) الوصيَّة بالصُّحبة الصَّالحة، والتَّحذير مِن رفقة السُّوء ١٤٥
(٥١/٤٢) الوصيَّة بطهارة القلب وبسلامة الصَّدر ١٥٠
(٥١/٤٣) الوصيَّة بترك الحسد ١٥٥
(٥١/٤٤) الوصيَّة بغضِّ البصر ١٥٨
(٥١/٤٥) الوصية بالمحافظة على الوقت ١٦١
(٥١/٤٦) الوصيَّة بترك مَا لا ينفع ١٦٥
(٥١/٤٧) الوصيَّة بالإكثار مِنَ الذِّكر وتلاوة القرآن الكريم ١٦٨
(٥١/٤٨) الوصيَّة بتهذيب النَّفس ١٧٣

(٥١/٤٩) الوصيَّة بمحاسبة النَّفس ومخالفة الهوى ١٧٧
(٥١/٥٠) الوصيَّة بالاستمرار على مجالس الذِّكر ١٨١
(٥١/٥١) الوصيَّة بالتَّوبة الصَّادقة مع الاعتراف بالتَّقصير ١٨٣
الخاتمة ١٨٧
فهرس ١٨٩

الحمد لله

د. عصام بن محمد باسنبل